التطورات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية لعرب شبه الجزيرة قبل الاسلام

الدكتور حسين قاسم العزيز

قسم التأريخ

تواجه الباحث المعني بدراسة تاريخ عرب شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وخاصة دراسة الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وتطوراتها ، سيما في الحجاز ، وبصورة أدق في نجد ، مشكلة من أعقد المشاكل ، تلك هي انعدام المصادر التاريخية المكتوبة بالعربية قبل الاسلام[1] ان غالبية الروايات الشفهية ذات الطابع القصصي التي وصلت المؤرخين المسلمين عن تلك الفترة لم تدوّن الا في القرنين الثاني والثالث الهجري ، وهي في الاصل من صميم الادب القصصي • ولم يلتفت العلماء المسلمون ، عند تدوينهم لتلك الروايات ـ كما يشير فرانز روزنثال[2] ـ

---

(١) كانت الكتابة معروفة فأسرى بدر من القريشيين الضعفاء قد طلب منهم تعليم الاميين من المسلمين القراءة والكتابة لقاء فك أسرهم ، ويذكر ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري ، في كتاب المعارف (القاهرة ، ١٩٦٠م ، ص : ٦٢١) ، وابن رستة ، أبو علي أحمد بن عمر في الاعلاق النفيسة (نشر دى غويه ، ليدن ١٨٩٢ ، ص ١٩٢ ، ٢١٧) بأن قريشا أخذت الكتابة من الحيرة ، ولكن بالرغم من معرفة الكتابة فانه لم يعثر على مصدر واحد مكتوب قبل الاسلام ، ويذكر المستشرق السوفيتي بارتولد ، فاسيلي فلاديميروفيج : (بأن هنالك كتبا بقيت من القرن السادس تدل على أن الغة العربية أيضا استعملت لغة الكنيسة ولكن لم يثبت الى الآن وجود أدب نصراني عربي في العصور التي قبل الاسلام) ، الحضارة الاسلامية ، ترجمها عن التركية الى العربية حمزة طاهر ، ط ، ، مصر ، ١٩٦٦ ، ص ٤٤ •

(٢) وقد ذكر : (لقد كانت الرواية التاريخية الاسلامية في أصلها من منتوجات الجزيرة العربية ، بصرف النظر عن وجود مقدار كبير من الادب الفارسى الذى عرفه المسلمون ، وسرعان ما اعتبروه اسطورة ، وفي

الى اصولها الادبية القديمة ، فاعتبرت تلك الروايات مادة تأريخ تلك الحقب رغم سذاجتها وارتباكها وتناقضها ومبالغتها وتهويلها ، واعتمادها الوصف العرضي للحوادث ، وتجنبها التعمق في معرفة الاسباب والدوافع ، وعدم اهتمامها بأستخلاص النتائج • لهذا فهي أقرب الى الاساطير والادب الفولكلوري منها الى المادة التاريخية والبحث التاريخي الذي يعتمد الدراسة والتمحيص والاستنتاج والنقد والتجريح • وتعقّد المشكلة أمام الباحث عن تلك الحقبة يرجع أيضا الى انعدام المدونات الرسمية والاحصائيات والبيانات ـ الا في الجنوب الغربي ، في اليمن وحضرموت وقتبان ، حيث أشارت النصوص ، التي اكتشفها واستنسخها وحل رموزها المستشرقون في القرنين الماضيين ، الى مقدار الضرائب وكيفية جبايتها ومصادرها والجهات التي تذهب اليها ـ كما أن الروايات التي على تلك الشاكلة التي وصفناها قلّما تعنى بالامور الاقتصادية والمعاشية والاجتماعية للسكان ، واذا تعرضت لها فبصورة عرضية غير مقصودة ، لهذا أحجم الكثيرون عن الخوض في تأريخ عرب ما قبل الاسلام • يقول جرجي زيدان : ـ (ليس في تأريخ الامم الراقية أسقم من تاريخ العرب قبل الاسلام ، حتى تهيّب الكاتبون الخوض فيه لوعورة مسلكه وتناقض الاقوال فيه)[٣] وذكر فيليب حتي : ـ (ليس للباحث في ظلمات الجاهلية

مراحلها الاولى كانت قد سبقت تبلور العلم والادب الاسلامي ، فقد وجد هذا النوع من الرواية الادبية عندما بدىء بكتابة الادب الاسلامي ، ثم صار جزءا من الادب التأريخي الذي لم يعد ينقله القصاصون ، بل أصبح ينقله العلماء كتابة أو مشافهة دون ان ينتبهوا الى أصوله القصصية) ، علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ، بغداد ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥٨

(٣) العرب قبل الاسلام ، مراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، بلا ، ص ١٧ •

الا نور ضئيل من الحقائق المثبوتة يهتدي به)[٤] . وكذلك أشار صاحب المعمل الواسع (تاريخ العرب قبل الاسلام)[٥] الدكتور جواد علي الى ان (تاريخ الجاهلية ـ قاصدا به تاريخ العرب قبل الاسلام ـ هو أضعف قسم كتبه المؤرخون في تاريخ العرب ، يعوزه التحقيق والتدقيق والغربلة)[٦].

الاوضاع الاقتصادية :

رغم ان العوامل الجغرافية ، المناخية والتضاريسية وطبيعة التربة وتوزيع المياه ، لا تلعب دورا حاسما في التحولات الاجتماعية ، فهي في أوربا ذاتها منذ ثلاثة آلاف سنة بينما اوربا مرت خلال ذلك بنظم اجتماعية مختلفة ، وان اوصاف الرحالة والمؤرخين الكلاسكيين الاغريق واللاتين عن الظروف الجغرافية لشبه الجزيرة العربية وخاصة المناخية لا تختلف كثيرا عن الاوصاف الحديثة[٧] ، مع ذلك فان للعوامل الجغرافية ـ وخاصة في العهود القديمة ـ أثرها في اقتصاديات الشعوب . ولما كانت الصحراء الغربية المترامية الاطراف ، التي هي نتاج المناخ والتربة ، مستحوذة على أوسع بقاع شبه الجزيرة ، التي تتجاوز المليون ميل مربع ، عدا أطرافها الجنوبية الغربية ـ اليمن وحضرموت وقتبان ، وفي أقسامها الشرقية في هجر والاحساء والواحات الخصيبة في الحجاز ـ تبوك ، تيماء ،

---

(٤) فيليب حتي وأدور جرجي وجبرائيل جبور ، تاريخ العرب (مطوّل) ، ط ٤ ، بيروت ، ١٩٦٥م ، ١/١١٨ .

(٥) مطبعة التفيض بغداد ، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٤ ، بثمانية اجزاء ورغم الشروح المستفيضة والاستطرادات الكثيرة فقد وسّعه وأخرجه باسم (المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام) ، صدر منه ثمانية أجزاء لحد الآن ، بيروت ، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢م ، وينوي اخراجه بعشرة أجزاء .

(٦) تاريخ العرب قبل الاسلام ، ١/١٠ .

(٧) بلاييف ، يفغيني الاكسندوفيج ، العرب ، الاسلام والخلافة الاسلامية في بواكير القرون الوسطى ، (بالرومية) ، موسكو ، ١٩٦٥ ص ٣٢ .

فدك ، خيبر ، يثرب (المدينة) ، الطائف ـ وفي الوسط ـ في نجد ـ في منطقة الافلاج والخروج والدلم والدرعية وبريدة وغيرها ـ والاودية الخصيبة ، كوادى بيشه ، نجران والدواسر ، فقد قلصت امكانيات تطور الاقتصاد المنتج في الاغلب الاعم من مناطقها ـ الصحراء ـ ان لم تشله تماما. كما وانها السبب ـ كما لاحظ انكلز في رسالته الى ماركس[٨] ـ في انعدام الملكية الخاصة للارض . هذا بالاضافة الى دور الاحتلال الاجنبي في تدهور اقتصاديات البلد ، كالاحتلال الحبشي لليمن (الفترة الاولى ٣٤٠م ـ ٣٧٨م ، والثانية ٥٢٥م ـ ٥٧١م) والايراني الساساني لليمن ، الذي أعقب الاحتلال الحبشي ودام حتى الفتح الاسلامي ، واحتلال الايرانيين للبحرين . لقد دمر المحتلون الغزاة اقتصاد البلاد العربية الضعيف ، ونهبوا خيراتها ، وحطموا تجارتها الرابحة ، حيث أخذت القوافل التجارية المخترقة لاراضيها بالتحول عن الطرق المحاذية لسواحل بحر القلزم (الاحمر) الشرقية بين اليمن ومواني سوريا الى بلاد ايران ـ طريق الحرير البرى .

لقد ساد ، في أقصى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة ، في اليمن وحضرموت وقتبان ، النظام المشاعي (الجماعية) ، كأسلوب للانتاج

---

(٨) كتب فردريك انكلز الى كارل ماركس رسالة يقول فيها : ـ ان انعدام الملكية الخاصة للارض يصبح مفتاحا لفهم الشرق بأجمعه . وفي هذا يكمن أساس تاريخه السياسي والديني كله . ولكن لماذا لم تصل شعوب الشرق الى مرحلة التملك الخاص للارض بل ولا الى التملك الاقطاعي ؟. يخيل الي ان ذلك يفسر بشكل أساسي بالمناخ وبطبيعة الارض وبصورة خاصة في منطقة الصحراء الكبرى التي تمتد من الصحارى (يقصد الكبرى في أفريقيا) عبر بلاد العرب ، الفرس ، الهند ، التتر حتى أعالي البلاد الآسيوية . ان الشرط الاول للزراعة هنا هو طريقة الارواء الصناعية وهي أما أن تقوم به الجماعة أو المحافظة أو الحكومة المركزية . رسالة انكلز الى ماركس حزيران ١٨٥٣م . كارل ماركس وفردريك انكلز ، الرسائل المختارة (بالروسية) ، موسكو ، ١٩٥٣ ، ص ٧٤ ـ ـ

لعشرات الالوف من السنين ، حيث كانت العشائر في البدء وظلت لاحقاب طويلة هي الوحدة في كل مكان ، فكان كل شيء ملكا للقبائل الرحالة ، الصيد أراضي الحمى ، العيون والآبار ، وأسلاب الغزو ، ملكا مشاعا عاما بين الافراد • لكن علاقات الانتاج الجماعية في النظام البدائي (أو المجتمع البدائي Primitive Community) لا تساعد على تطور القوى المنتجة ، وتغيرت مع الزمن الى علاقات انتاجية قائمة على الملكية الفردية • والسبب في ذلك ـ كما يرى ف• كيللي ، و م• كوفالزون ـ (هو في أن الملكية الاجتماعية في العشيرة والقبيلة وعلاقات العمل الجماعي والتعاون المتبادل بين أعضاء هذه الجماعات تظل تتلاءم مع طابع قوى الانتاج الى أن يستدعي المستوى المنخفض لتطور الانتاج ضرورة تحسين الانتاج • لكن التحسين التدريجي لادوات الانتاج يؤدي الى رفع مردود العمل الفردي ، وان توسيع وتطوير الانتاج يؤدي الى تقسيم العمل وظهور الانتاج الفردي • وبما أن شكل الملكية يبقى اجتماعيا والتوزيع يبقى بالتساوي فان الاهتمام المادي برفع انتاجية العمل لا يظهر لدى الانسان الفرد وهذا يعني أن قوى الانتاج المتطورة دخلت في تناقض مع علاقات الانتاج البدائية وتتطلب استبدالها بعلاقات اخرى تتلاءم مع المستوى الجديد المتطور • وان هذا التناقض يتطور في قلب النظام البدائي مع ظهور تربية الماشية وفلاحة الارض وزراعتها ، وبصورة خاصة مع اكتشاف صهر المعادن واستخدام الادوات)[٩] •

---

(٩) المادية التاريخية ، نقله عن الروسية أحمد داود ، دمشق ، ١٩٦٧ ، ص ١٥٨ ـ ٩ • لاحظ أيضا : الاقتصاد السياسي (كتاب دراسي) ، لمجموعة من المؤلفين (بالروسية) ط ٤ ، موسكو ، ١٩٦٢ ، ص ٢١ـ٢٣ ، وفيه اضافة الى ذلك بأن اولى الخطوات في تقدم الحياة المشاعية هي تقسيم العمل بين الكبار والصغار وبين الرجال والنساء ، مما أدى الى تطوير القوى المنتجة •

ومع ظهور الانتاج الفردي ظهر التناقض بين الملكية الاجتماعية والطابع الفردي لعملية الانتاج ، والذى يحل عن طريق القضاء على الملكية الاجتماعية وظهور الملكية الخاصة لوسائل ومواد الانتاج • وهذه هي الاسباب الرئيسة التي أدت الى القضاء على النظام البدائي كحتمية تاريخية طبيعية(١٠) •

ففي اليمن حيث تقدم السكان هناك منذ أزمان موغلة في القدم في احتراف الزراعة والاستقرار ، لملاءمة التربة وبفضل التنظيمات الاروائية(١١) ، كحفر القنوات والصهاريج واقامة السدود (مأرب مثلا) والخزانات ، فازدهرت البلاد وعمرت اليمن ، حتى قيل عنها العربية السعيدة (Arabia Felixà) ، وتدريجيا أخذ النظام المشاعي (القبلي) بالتقلص ليظهر معه بديله النظام العبودي (Slave-Holding formation) وهكذا أصبح نصف قبلية ـ نصف عبودية ، وظهر اسلوب الانتاج العبودي(١٢) كضرورة تاريخية ، والذي ستكون له السيادة فيما بعد ،

---

(١٠) المادية التاريخية ، ص ١٥٩ •

(١١) يذكر ماركس : بأن الظروف المناخية وطبيعة السطح الخاصة وخصوصا وجود مساحات شاسعة من الصحارى الممتدة من الصحراء عبر بلاد العرب ، ايران ، الهند والتتار حتى أعلى المناطق الجبلية الآسيوية جعلت نظام الارواء الاصطناعي بالقنوات ومنشآت الري أساسا للزراعة في الشرق • كارل ماركس السيطرة البريطانية في الهند ، كارل ماركس وفردريك انكلز ، المؤلفات المختارة المجلد التاسع الطبعة ٢ ص ١٣٢ •

(١٢) يقصد بأسلوب الانتاج (Made of Production) :

ـ ١ ـ القوى الاجتماعية المنتجة و ٢ ـ العلاقات الانتاجية (الاجتماعية) المرتبطة بها والقائمة على نوع معين من ملكية وسائل الانتاج (Means of Production) بصورة مجتمعة • والعبودية (Slavery) نسبة الى العبيد • ويمكن أن يكون العبيد مملوكين ملكية خاصة أو ملكا للدولة أو المعابد (ومنهم راقصات المعابد) أو ملكا للرئيس أو الملك • لاحظ اوسكار لانكه ، الاقتصاد السياسي ، تعريب الدكتور محمد سلمان حسن ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٧ ، ص ٨٠ •

حيث ظهر التملك الفردي (الشخصي ـ أساس الاستغلال) الى جانب العام المشاع • وبدأ المجتمع الطبقي بالظهور ، بتحوّل أصحاب الجاه والقوة والنفوذ والمنعة الى مّلاك يمتلكون الاراضى (التي كانت ملكا عاما واستحوذوا عليها) والعبيد[١٣] ، وظهر تجار ومرابون ونخاسون ، وهناك حرفيون مستقلون وعبيد ومعهم فلاحون أحرار ، يزرعون في أراضى عامة يزرعونها مشاعا (في الاراضى العامة المهددة بالتقلص نتيجة استحواذ مّلاك العبيد عليها ـ التناقض بين مشايخ العشائر والملاكين الجدد) ، وهناك فلاحون لا يملكون أرضا فيزرعون في أراضى الملاكين ، وفي الاوقاف المحبوسة على المعابد (منح الملوك الملاكين وكهان المعابد حق استثمار الاراضى بموجب عقود حسب شروط خاصة) ، بموجب عقود خاصة ، لقاء ضرائب وخدمات عامة ، يقدمها الفلاحون للملاكين وللكهان ذكرتها النصوص التي تمكّن المستشرقون من حلّها ، ولكن بالرغم من تفكك المشاعية فان نظام العبودية لم يتركز بعد ، وهنا ينطبق تعليل ماركس الذى أشار اليه العالم السوفيتي كونراد[١٤] عند كلامه عن أطوار ومراحل نظام العبودية بصورة عامة (وعندما تحللت الاشكال العامة للتملك فان الأساس الاقتصادي للمجتمع الطبقي كان كلا من الاقتصاد الفلاحي الصغير والانتاج الحرفي المستقل ، اذ لم يكن الرق قد أفلح بعد بأية درجة اتقان الانتاج بصورة واسعة [١٥] • وساعدت التجارة [١٦] القائمة على

---

(١٣) على الاغلب استخدموا في الاعمال المنزلية لفترة طويلة •

(١٤) كونراد ، ن• إ• الغرب والشرق (مقالات) ، موسكو ، ١٩٦٦ ، (بالروسية) ، الفصل الثالث منه بعنوان : حول نظام العبودية (About the Slave - holding formation) ص ٣٣ ـ ٥٢ •

(١٥) ك•ماركس ، رأس المال ، المجلد ١ ، ك•ماركس و ف•انكلز ، المؤلفات ، الطبعة الثانية (بالروسية) ، المجلد ٢٣ ، ص ٣٤٦ ، كونراد ، الغرب والشرق ، الملاحظة ٢٤ ص ٣٩ •

(١٦) يقول انكلز : ـ (وهكذا صحب التوسع في التجارة والنقود

أساس توسط اليمن بين البلدان المصدرة للمنتوجات الاستوائية والمدارية (من الهند وسواحل أفريقيا الشرقية) وبين البلدان المصدرة للبضائع المنتجة في البلاد الباردة والمعتدلة من أقاليم غربي أوربا وحوض البحر المتوسط (من سواحل سوريا ، ومصر أحيانا) ساعدت على تقدم الجزء الجنوبي الغربي لشبه جزيرة العرب وازدهاره ، كانوا يتاجرون بالذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل والافاويه ، كالبهار والفلفل ونحوهما ، وكانوا يأتون بهذه المواد من الهند ، حاملين من شواطىء أفريقيا الشرقية العطور والاطياب وخشب الابنوس وريش النعام ، والذهب والعاج ، غير ما كانوا يحملونه من حاصلات اليمن نفسها ، وهي البخور واللبان والمر واللادن وبعض الحجارة الكريمة كالشب والعقيق ، ومن سقطرة (Socotora جزيرة في المحيط الهندي شرقي خليج عدن) العود والند ، ومن البحرين اللؤلؤ ، أما ما كانوا يحملونه من صور وغزة فهو الحنطة والزيت والخمر والمنسوجات الكتانية والقطنية والارجوان والزعفران والآنية من الحديد والصفر والسبائك الفضية[١٧] . لقد دفع تزايد الطلب على البضائع المصنوعة والمنتوجات الزراعية الى توسع التبادل الاستثنائي بين أقطار العالم القديم والى تخطي الحدود الاقليمية[١٨] ، فامتد نفوذ اليمانيين التجاري الى المحيط الهندي (وصلوا الهند كما أشرنا سابقا وسواحل أفريقيا الشرقية) ، بفضل توسع مداركهم بالفلك والانواء ، حيث ساعدتهم تلك المعارف رغم بساطتها على

والمراباة وتملك الارض والرهن تركز الثروة وتمركزها سريعا في أيدي طبقة صغيرة من جهة ، وازدياد فقر الجماهير ، وكتلة متزايدة من الفقراء من جهة اخرى) . أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، منشورات دار النداء للطباعة والنشر ، ص ٢٠٠ .

(١٧) جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ١٧٨ ـ ٩ .

(١٨) كونراد ، الغرب والشرق ، ص ٤١ .

تنظيم سفراتهم البحرية باستخدام مواسم واتجاهات هبوب الرياح الموسمية، فصاروا بذلك بحارة مهرة ، بالاضافة الى التجارة والزراعة التى تقدموا فيهما ، وقد أرغمهم انعدام الموانيء الصالحة للرسو على طول السواحل الشرقية للبحر (القلزم) الاحمر (وكثرة الامواج الصغيرة التي تتكسر على الصخور ـ كما وصف المؤرخ المجهول ـ صاحب كتاب طواف حول بحر اريتريا ـ) (١٩) على سلوك البري المحاذي لشواطيء البحر الاحمر في غرب شبه جزيرة العرب ، لنقل بضائع الهند وجنوب آسيا وشرقي أفريقيا وبضائعهم الى بلدان حوض البحر المتوسط وبالعكس ، وقد أقاموا حاميات على طول الطرق البرية في أراضيهم وخارجها لحماية قوافلهم التجارية .

ان تغيير وسائط النقل البحرية الى برية وبالعكس في اليمن وحضرموت ساعد على قيام المراكز التجارية وتكتل السكان فيهما ، مثلما ساعدت الزراعة والتجارة على تجمع أكبر للقوى المنتجة في اليمن ، مما عجّل في تغيير اسلوب الانتاج من مشاعية الى عبودية ، ولكن ينبغي الاخذ بعين الاعتبار بأن الشغل الرقي (نسبة الى الرقيق Slave Labour) عندئذ لا يزال بعيدا عن نيل تلك الاهمية في الاقتصاد ، التي نالها مؤخرا (٢٠) .

لقد قامت في هذا الركن من شبه الجزيرة بالاضافة الى الزراعة والتجارة حرف متعددة ساعد على ظهورها تقسيم العمل وازدادت لسد احتياجات السكان ـ أهل المدن ـ المحلية وتلبية لطلبات التجار المتعاظمة من

---

(١٩) Erythraean Sea, P. 20

(٢٠) كونراد ، الغرب والشرق ، ص ٣٩ وهو يتكلم عن نظام العبودية بصورة عامة ، غير أن كلامه ينطبق والحالة التي نحن بصددها في اليمن . لاحظ هامشنا رقم ١٣ .

السلع والاحتياجات المختلفة ، فبعثت التجارة النامية الانتاج الحرفي الذي احتاج في تلك الظروف الى تحسين فنونه ورفع عمله الانتاجي ، فقامت حرف ومهن : الحدادة والنجارة والبناء والحياكة والصياغة وصناعة الأسلحة ، حيث اشتهرت اليمن بنوع من السيوف الماضية ، وظهر صنّاع وحرفيون يمتهنون حرفا ومهنا متعددة ، واستغل العبيد في الاعمال الصناعية والحرفية (من هنا كان يأتي ازدراء الارستقراطيين للحرف والمهن) ، وتحوّل الشغل الرقي ، الذي كان قبل هذا بمستوى الرق المنزلي فحسب ، تحوّل الى وسيلة لتركيز (Intensification) الزراعة بصورة عامة ، وجزئيا الانتاج الحرفي ، لقد أصبح التركيز هذا ضروريا بالنظر لنمو الحاجيات ، هذا النمو مرتبط ـ كمياً ـ مع تعاظم تركيب العائلة والعشيرة و ـ نوعياً ـ اشترطه تعالي المتطلبات نحو الجهة المادية للحياة(٢١) .

أصبحت اليمن بثرائها وسمعتها محط انظار الرومان (الذين كللوا عاملهم على مصر أليوس گالوس Alius Gallus بقيادة حملة في ٢٤ ق.م. الى ، بلاد الطيب والافاويه ، وقد بلغت الجوف في اليمن ، وقد وصف المؤرخ سترايون ـ ٦٤ ق.م ـ ١٩م ـ تلك الحملة الفاشلة حيث كان مرافقا لها) ، والاحباش (الذين احتلوها ، الفترة الاولى ٣٤٠م م ـ ٣٧٨م) والبيزنطين (الذين دفعوا حلفاءهم الاحباش المسيحيين ؟ الاكثر تحملا على مصاعب الصحراء لغزو اليمن ٥٢٥م واحتلالها حتى ٥٧١ م وغزو الحجاز عام ٥٧٠م حتى الفتح الاسلامي لها) .

لقد تفنن الحكام اليمانيون ، والحضارمة ، والقتبانيون ، والطبقة السائدة ، والمعابد (الكهان) الدينية ، منذ أيام المعينيين (الذين حكموا

---

(٢١) أنظر المصدر السابق ، ص ٣٧ ـ ٨ .

بين القرن الثلاثين ـ حسب رواية ـ أو القرن الثاني عشر قبل الميلاد ـ حسب رواية اخرى ـ وبين القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد) ، الذين كان الاوائل من ملوكهم يمارسون الملوكية والكهانة في آن واحد مزواد[٢٢] ، وقتبان وحضرموت (ظهرتا في أواخر أيام المعينيين والسبئيين والحميريين (من ٨٠٠ ق٠م ـ ٥٢٥م) ، الذين كان الاوائل من ملوكهم (السبئيين من ٨٠٠ ق٠م٠ الى ٦١٠ ق٠م٠) يمارسون الملوكية والكهانة (المكارب ، المكرّب = المقرّب = الشفيع) في آن واحد ، تفتنوا في وضع الضرائب الكثيرة التي كان يئن من ثقلها معدمو الشعب كافة ، وكانت تلك الضرائب تذهب اما الى خزانة الدولة العامة أو لخزانة الملك او الى المعابد [٢٣] والمشاريخ والحكام والملوك ، وبالرغم من المظهر الديمقراطي لتشريع الضرائب ، حيث تخبرنا النصوص المكتشفة في اليمن وحضرموت

---

(٢٢) من أجل أحكام السيطرة ، ولان بعض الحكام منحدرون من الكهان ، فقد مارس الملوك الاقدمون الكهانة والملوكية في آن واحد (والدين ـ كما قال تنسر ـ والملك توأمان ، لاحظ كتاب تنسر الذى ترجمه عن الفارسية يحيى الخشاب ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٢٧ ، لاحظ مقالنا : نظرات جديدة في الديانة الايرانية ، الثقافة الجديدة ، بغداد ، العدد ١٧ـ١٨ ، ص ٧٧ والهامش ٩ ص ٩٩) ، ولما أصبحت ممارسة الطقوس الدينية التي تتطلب التظاهر بالرأفة وتعيق الحكام عن ممارسة استغلالهم وبعد أن توطد حكمهم تخلوا عن الكهانة وانفردوا بالملوكية فقط ٠

(٢٣) يشير جواد علي : (ولكل معبد كهنة يقيمون الطقوس ويقبضون الطقوس ويقبضون العوائد ويتصرفون في الاوقاف وما يحبس على المعبد ٠ ويساهم المعبد في المشروعات العامة مثل اقامة الحصون والابراج وحفر الخنادق بتنازله عن الضرائب التي تستحق له أو بتقديمه الاموال والمصروفات من خزانته الخاصة وله ضرائب تبلغ عشر الارباح التي تجنى من التجارة أو منتجات الارض ٠ فان كانت حصته عينا مثل لبان ومر وبخور حفظت في خزائن المعبد يأخذ منها ما يحتاج اليه في الاعياد وللطقوس الدينية ويباع الباقي في الاسواق ويرسل مع القوافل ٠ ولذلك كانت عوائد المعابد كبيرة وأرباح الكهنة عظيمة ، وكان أكثرهم من الارستقراطيين وكبار الاغنياء) ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ٤٠٧/١ ٠

وقتبان على ان الارستقراطيين من أعيان المملكة والكهان ورؤساء العشائر كانوا يتشاورون في تحديد كمية وكيفية جباية الضرائب ـ ثم يقدمون لوائحهم التريعية للملك ليصادق عليها بمرسوم[٢٤] ، ثم يدفع الملك بتلك اللوائح الى كهان المعابد الوثنية ليباركوا منفذيها ويصبّوا اللعنة على المتخلفين عن تنفيذها ، وطبيعي ان الطبقات المسحوقة المعدمة من أبناء الشعب الجنوبي المساكين ، الذين تقرر عليهم تلك الضرائب المجحفة بمعزل عنهم ، لا يمارسون المشاركة في تشريعها أو مناقشتها ولا يملكون أي حق في الممارسة • ان هذه الضرائب المجحفة الثقيلة مع استهتار وتفسخ الطبقة الارستقراطية (مالكة العبيد) التي استنزفت مع المعابد الدينية ، الكثير من الاموال الطائلة وأخذت تنفقها على ملاذها ولهوها وشؤونها الخاصة ، مهملة شأن السدود والقنوات والمرافق العامة في البلاد (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط • وأثل وشيء من سدر قليل ـ سورة سبأ : ١٥-١٦)، فأهملت السدود والقنوات وكافة شؤون الري مما أدى الى خراب المزارع واقفارها لان مقاومة السدود للسيول الجارفة العظيمة قد ضعفت حتى تصدعت وانهارت امامها ، ولهذا فان اقفار البلاد وهجرة السكان منها يعزى الى اهمال شؤون الري وعدم الصرف عليها وليس الى تغيّر المناخ ـ الجفاف، وكان المستشرق الجيكوسلوفاكي ألويس موزل (الويز موزيل Musil, A. ١٨٦٨ ـ ١٩٤٤) (المشهور بين قبائل الرولة بالشيخ موسى الرويلي) قد أصاب كبد الحقيقة في معرض رده على المستشرق الايطالي ليون كيتاني (Leone Coetani ١٨٦٩ ـ ١٩٢٦) وسواه من المستشرقين الذين

---

(٢٤) أنظر جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ١٩٢/٢ •

يعزون هجرات الساميين والعرب من شبه الجزيرة العربية الى تغير المناخ ـ الجفاف ، فقد بيّن موزل بأن السبب الحقيقي يكمن في ضعف الحكومات وتغير طرق التجارة لان السيول هي التي حطمت سد مأرب وليس الجفاف •

كما وان النظام العبودي قد تجاوز في مسيرته التطورية أدوار النمو والتوطيد ، وتحوّل الى الوهن والضعف ، مما أدى الى اشتدادا التناقض في العلاقات الاجتماعية (علاقات الانتاج) في المجتمع العبودي اليماني والى الازمات الحادة والى تفكك المجتمع وكيانه السياسي (البناء الفوقي) • لقد أدى ضعف الاقتصاد اليماني (القاعدة الاساسية ـ البناء السفلي) الى انحطاط الكيان السياسي مما يسر للمحتل الاجنبي من غزو البلاد حيث لم ير مقاومة عنيفة ولا قلاع حصينة متينة ـ بسبب الاهمال ، وكانت الامبراطوريتان الاقطاعيتان البيزنطية المسيحية والايرانية الساسانية الزرادشتية تتنافسان في الاستيلاء على بلاد شبه الجزيرة العربية وبصورة خاصة اليمن والحجاز •

وقد غرر البزنطيون ـ كما أسلفنا ـ بحلفائهم الاحباش المسيحيين الاكثر تحملا لمصاعب الصحراء ولقرب الحبشة من اليمن ، وحتى لا يعيد البيزنطيون تجربة حملة أليوس گالوس الرومانية الفاشلة على اليمن ، على غزو اليمن والتوسع منها شمالا الى الحجاز ، وقد اتخذ الدين وسيلة لتغليف أغراض الحملة التوسعية على أساس الثأر من أهل اليمن المتهودين ، الذين احرقوا المسيحيين في وادي نجران ، غير ان توسع الحملة واتجاهها نحو الحجاز الوثني واحتلال الساسانيين الزرادشتيين لليمن ، وان ادعوا بأنهم جاءوا لنصرة اليمانيين كأصدقاء محررين لا فاتحين ، لا يتركان مجالا للافتراض بأن أسبابها كانت دينية وانما اتخذ الدين وسيلة للتبرير بينما ترى واضحة الدوافع الاقتصادية في الاستحواذ على بلاد الطيب والبخور

والافاوية والاحجار الكريمة وعلى طرقها التجارية وتلك هي الاسباب الحقيقية لتلك الحروب اللصوصية التوسعية بين الامبراطوريتين المتخاصمتين على اقتسام عالم الشرق الادنى القديم •

وكان من اولى الثمار السيئة التي جناها أبناء اليمن المكتوين بنيران الاحتلال الاجنبي ، الحبشي ـ الايراني ، الدمار الاقتصادي من جراء سرقة خيرات البلد وبعثرة قواه المنتجة وانتقال طرقه التجارية الى شمال الجزيرة والى خارجها ، الى بلاد ايران ـ طريق الحرير البري(٢٥) ، مما سارع في افقار البلاد وهجرة مدن ترى الآن خاوية في اليمن(٢٦) والحجاز في مسار الطرق التجارية القديمة بعد أن كانت عرائس مدن شبه الجزيرة مزدهرة يانعة ، تماما مثلما جاثية الآن المدن الاثرية كالاخيضر ، والحضر ، وتدمر ، والبطراء ، في العراق وسوريا والاردن كشواهد على تقدم ورقي مدن التجارة في الايام الخوالي • وكان من جراء

---

(٢٥) أشار تاريخ العالم الى أن السلطة الساسانية المسيطرة على اليمن (٥٧٢ ـ ٦٢٨م)اتجهت الى تحويل تجارة المرور ـ الترانزيت ـ في نقل البضائع الهندية الى بيزنطة عبر ايران فقط ولم تسمح بمرورها باليمن مما أدى الى تدهورها وتعطلت أنظمة الارواء الواحدة تلو الاخرى وانحطت المدن ، تاريخ العالم ، لمجموعة من المؤلفين ، (بالروسية) ، المجلد الثالث ، موسكو ، ١٩٥٧ ، ص ١٠٦ •

(٢٦) كتب كارل ماركس : (يفسر تخصيب التربة الاصطناعي ، الذي ينتفي بانحطاط نظام الري مباشرة ، الحقيقة التي تبقى مستغربة من دون ذلك ، وهي أن مساحات برمتها كانت يوما تزرع زراعة رائعة استحالت الى أراض قاحلة وجرداء الآن (تدمر ، البطراء ، وأطلال اليمن ، ومناطق في مصر ، وايران ، وهندستان) : وهي تفسر حقيقة أن حربا مدمرة واحدة يمكن أن تخلي البلاد من سكانها لقرون وتجردها من حضارتها كليا ، كارل ماركس ، السيطرة البريطانية في الهند ، كارل ماركس وفردريك انكلز ، المؤلفات (بالروسية) م٢ موسكو ، ١٩٣٤ ، ص ٥٠٩ ، انظر لانكه ، وينسب القول الى انكلز في رسالته الى ماركس ، الاقتصاد السياسي ، ص ٣٨٤ •

تدهور الاوضاع الاقتصادية ان فقد النظام الاقطاعي (Feudalism) امكانية الظهور في أعقاب العبودي لان عناصره ظلت ضعيفة غير قادرة على التطور وكان تشتت القوى المنتجة وخراب الاراضي الزراعية من أهم أسباب ضعف الاقتصاد المحلي •

اما في الحجاز ونجد فقد لعبت الصحراء أوسع أدوارها في عرقلة اقتصادهما بحيث ظلا لاحقاب طويلة ضعيفين غير منتجين ، الا في حدود ضيقة جدا ، فساد نظام المشاعية فيهما لفترة طويلة ، وظل اسلوب الانتاج القبلي الطابع العام لهما • وكان في ظل الجماعية كل شيء ملكا للجماعة مشاعا لها كالمراعي ومناطق الصيد والاحتطاب والعيون والآبار وأراضي الحمى هي مشاع للقبيلة أو الجماعة ايضا وكذلك الغنائم واسلاب الحروب والغزوات • ولم يقتصر تأثير الصحراء في عرقلة الاقتصاد فحسب وانما ساعدت على عزلة بلاد شبه الجزيرة عزلة غير تامة عن مناطق الشرق الادنى التي سبق وان طوّرت أساليب انتاجها بعد تعلمها الزراعة واحترافها لمهن عديدة وامتهانها للتجارة وتغيّرت طبيعة مجتمعاتهـــا حيث انتقلت من المشاعية الى العبودية فالاقطاع الناشيء • أما هنا ، وفي نجد بصورة خاصة ، فكان الانتقال يتم من المشاعية ببطء شديد لضعف التطور الاقتصادي فيهما •

ولكن ، كان لاضطرار القوافل التجارية بين اليمن وسواحل سوريا على اختيار سبلا لها في براري الحجاز الفضل في نشوء محطات للقوافل حول العيون والآبار قامت فيهما ، فيما بعد ، مستوطنات وحاميات نشأت فيها حرف تتعلق بخزن البضائع وتقديم العلف والطعام وايواء المسافرين وتصليح وصنع الاسلحة والدروع وكل ما يحتاج اليه التجار والمسافرون وقامت فيها زراعة ومهن وحرف مختلفة ايضا بفضل هجرة الاقوام المتحضرة التي ألفت الزراعة ولحاجة القوافل والمستقرين ، فزرعت الحبوب والفواكه والمواد العلفية في الحارات الخصبة (قرب يثرب ، فدك ، خيبر ، تيمـــاء

وغيرها) فأخذت قرى الحجاز تحث الخطى سريعا نحو التوسع والازدهار بالاعتماد على الزراعة والتجارة والحرف النامية ، وأخذت المشاعية بالانحسار والتقلص في هذه المراكز بعد ان أخذ التناقض بين الملاك الجدد وبين المشاعيين بالتوسع وأخذ زعماء القبائل والمتنفذون فيها بالتحول التدريجي الى ملاك بما لهم من نفوذ وسطوة ومركز ، فبدأت تحل محل الجماعية (المشاعية) المقتنيات الفردية والتملك الفردي أساس الاستغلال الشخصي) لدى أفراد عديدين يستثمرون أموالهم وعبيدهم في الزراعة والتجارة ويمتلكون العبيد ويمارسون الربا ، فأخذ المجتمع المديني بالتطور عن الريفي الذي ظل بدائيا يتلكأ في مسيرته ، وظهر في المدن ملاك ارستقراطيون يملكون أموالا طائلة ومقتنيات من أراضي ودور وحوانيت وعبيد وجواري وخاصة القريشيون (الملأ المكي)وأثروا ثراء فاحشا وبطرق دنيئة من سلب جهود المستغلين ومن التلاعب بالموازين والغش في البيع والشراء وعن طريق الصيرفة ـ اقراض الاموال بفائدة ـ الربا ، واحتكار البضائع حيث كانوا يضاربون بها منتهزين هبوط أثمانها عند استيرادها وارتفاعها وتقدم مواعيد وصول القوافل وتأخرها ووفرتها في سنوات الجدب والانتاج الوافر فكانت البضائع والغلال وباقي السلع تشترى بأسعار بخسة وتختزن وتحتكر لتباع بأثمان مرتفعة جدا ، وكانت الاموال (النقود) تقرض بارباح فاحشة حيث كان الربا يطبق بأبشع صورة على المدقعين من عرب الحجاز الذين يكرههم الجوع والعرى ، من جراء الكوارث والقحط بسبب انحسار الامطار لسنوات وهجوم الآفات الزراعية كالجراد ، على الوقوع فرائس سهلة بأيدي هؤلاء الجشعين . فتكدست الاموال[٢٧] بيد قلة من ارستقراطي أهل المدن ، وظهر المعدمون وظهرت الفوارق في المجتمع الحجازي المديني . ولكن التطور الاقتصادي لم يكن قويا بحيث

---

(٢٧) لاحظ هامشنا رقم ـ ١٦ ـ

يسمح لعناصر النظام العبودي ، الموجودة في رحم النظام المشاعي ، لان تنمو بحيث تسارع في تعجيل التطور الاقتصادي نحو النظام العبودي ، صحيح ان لدى المجتمع الحجازي قد استخدم العبيد ، ولكن النظام العبودي ، الذي يلعب شغل العبد ـ كما وضح كونراد ـ فيه دور اسلوب الانتاج المحدد للاساس الاقتصادي للكيان الاجتماعي في تلك المرحلة من تاريخ الشعوب(٢٨) ، لم يظهر في الحجاز ـ كما لاحظنا حدوثه في اليمن ، وانما كان طابع المجتمع الحجازي مشاعيا منحلا وفيه مظاهر عبودية لم تتطور ومظاهر اقطاعية ستنمو فيما بعد ، ان الانتقال من المشاعية في الحجاز لم يسر بوتائر سريعة بسبب ضعف التطور الاقتصادي ـ كما قلنا ـ ولهذا لم تختلق الضرورة بعد (حتى قيام الدعوة الاسلامية) لقيام كيانات سياسية (حكومات = البناء الفوقي) متطورة ، لعدم تعمق التناقضات الطبقية بسبب ضعف القاعدة الاساسية (الحياة الاقتصادية ـ البناء السفلي) .

اما في نجد فلم يكن للاقتصاد من فرص وامكانيات للتطور فظل جماعيا الا في حدود ضيقة فردية في بعض الواحات (الدلم ، الخرج ، الدرعية ، الافلاج ، منفوحة .. وغيرها من الواحات والادوية) التي ظهرت فيها بعض المقتنيات الفردية بحالات استثنائية لقيام زراعة وصناعة التعدين وبعض الحرف البسيطة ، اما الطابع العام فكان مشاعيا حيث ظلت العشائر هي الوحدة في كل ارجاء الصحراء والبوادي وكل شيء يوزع مشاعا بين أفرادها ، وان ظهرت بذور الامتعاض من بوادر انفراد الارستقراطية القبلية ـ الشيوخ والامراء ـ بالمنافع العامة ، فتذكر الروايات العربية بيت شعر يخاطب أحدهم فيه شيخ العشيرة :ـ

---

(٢٨) الغرب والشرق ، ص ٣٣ ، وكلامه عن نظام العبودية في العالم بصورة عامة .

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول[٢٩]

ثم أخذ تذمر أفراد العشائر يتعاظم من جراء ازدياد أستبداد واستغلال الشيوخ والامراء لاراضي الحمى المشاعة (ضد كليب = وائل ربيعة ومصرعه مثلا) ، و (ضد حجر بن الحارث الكندي والد الشاعر أمرىء القيس ومصرعه) . ان المشاعية ظلت سائدة لمدة طويلة في نجد حتى بعد ظهور الاسلام لضعف التطور الاقتصادي ، ولهذا لم تختلق الضرورة فيه لقيام كيانات سياسية متطورة ، فلم تكن كندة ـ في الجزء الشمالي من نجد ـ الا امارة بسطت نفوذها على القبائل التي ارغمت على احتمالهم ولم تكتمل فيها شروط الدولة ، وقد فتكت القبائل بالامير حجر بن الحارث لمّا تمادى في غيّه وبطشه وحمّل القبائل فوق ما تحتمل حيث لم يعهد الافراد النأم والطاعة والولاء الا لقبيلتهم فحسب ، ولان اتحاد القبائل ـ كما يرى انكلز ـ كان يعني بدء سقوط النظام القبلي[٣٠] . ولهذا فان اتحاد القبائل وضمهم تحت سيطرة كان في غير أوانه ولا مستساغا .

الاوضاع الاجتماعية :

لم تمر حياة سكان شبه جزيرة العرب القدماء الاجتماعية بأنظمة متشابهة ، نظرا لاختلاف ظروفهم الاقتصادية وانماط أساليب انتاجهم ـ كما لاحظنا ـ ، فمنهم من عبر المشاعية الى العبودية ، بينما غيرهم تلكأوا في مسيرتهم التطورية فلم يتجاوزوا المشاعية وظلت تسودهم القبلية أدهرا أطول .

ففي الايام الموغلة بالقدم ، لما كانت الحياة الاقتصادية ضعيفة غير

---

(٢٩) المرباع والصفايا من الغنيمة ربعها وما يصطفى منها ، والحكم هو رأي الرئيس في أخذ سلب المقتول من الاعداء ان شاء أخذه أو تركه لغيره من الافراد ، والنشيطة ماجاء عرضا بدون قصد في طريق غزوهم ، والفضول ما يستعصى قسمته من بقايا الغنيمة ، اذ كان العدد فرديا مثلا .

(٣٠) أصل العائلة ، ص ١١٦ .

متطورة بسيطة ، وعندما كانت القبيلة هي الوحدة وكان العمل جماعيا يساهم فيه أفراد الاسرة كافة وأبناء العشيرة جميعا ، كانت المشاعية هي النظام الذي يلف كل شبه الجزيرة العربية ، فكانت الحياة الاجتماعية تبعا لذلك بدائية ساذجة حيث يرتبط الافراد بالولاء (العصبية) للقبلية .

ولما كان النظام العشائري ـ كما لاحظ انكلز ـ يفترض شكلا من الانتاج منخفضا جدا ، أي ، عددا قليلا جدا من السكان منتشرين فوق رقعة واسعة من الارض ، فان ذلك يؤدي الى خضوع الانسان خضوعا يكاد يكون تاما للطبيعة الخارجية الغريبة عنه ، المعاكسة له ، المبهمة ، خضوعا ينعكس في أفكاره الدينية الطفولية[٣١] . من هنا نلمس شدة تأثير الصحراء في اعاقة وتائر التطور الاقتصادي والاجتماعي لسكانها ، وكلما توافرت امكانيات التحرر من تأثيرها تهيأت فرص أكثر للتحول ، فمن المشاعية التي تسودها رابطة الدم والانتاجية الجماعية انتقلت مجموعات من سكان القسم الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة قبل غيرها الى العبودية ، حيث التملك الخاص والتبادل والتفاوت في الثروة وامكان الانتفاع بقوة الآخرين وتطور اساس التناقضات الطبقية تبعا لذلك .

لقد تفكك المجتمع القبلي وأخذ بالتحول الى بديله في هذا الجزء من شبه الجزيرة عندما ازداد فائض الانتاج لدى أفراد توارثوا الرفعة والقوة وأستغلوا ذلك الفائض للاستحواذ على وسائل الانتاج وامتلاك منتوج الآخرين وتحويل الانسان الى وسيلة عمل ، ان التفاوت في الثروة والملكية الخصوصية بين أفراد العشيرة أدى الى انقسامها الى أغنياء وفقراء ، وأقوياء وضعفاء ، وشرفاء (امراء ، ارستقراطية قبلية) وعاديين (عامة ، سوقة ، صعاليك ، سائر العرب)[٣٢] ، الخ . ان هذا التقسيم رافقه بروز ظاهرة

---

(٣١) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣٢) هذا التقسيم تجد ترديدا له في أشعار جملة من الشعراء.

استلاف المعوّزين من الاثرياء[٣٣] ـ الدين وبفائدة ـ ظاهرة الربا ، التي ساعدت على مضاعفة الثراء وتراكم الغنى •

وكان العبيد ، من فقدوا حريتهم بسبب الحروب ، فالاسرى من العرب[٣٤] وغيرهم يحولون الى عبيد ، وايفاء الديون ، وعن طريق النخاسة ، حيث يتم شراءهم أو سرقتهم ويجلبون من بعيد يستخدمون ج الزراعة والمشاريع الاروائية والعمرانية لدى الاقوياء والاغنياء ولدى الملوك والكهان ، كما وان المعدمين من أبناء العشيرة ، الذين تثقل كواهلهم الديون ، يفقدون حرياتهم أو حريات ذويهم ايفاء الديون ، فيباعون في أسواق النخاسة مع اسرى الحروب والذين استوردهم النخاسون من الخارج ، أو يعملون لدى دائنيهم مباشرة •

ان علاقات الانتاج السائدة في مجتمع العبيد كانت علاقات استغلال الرقيق من مالكيهم ، ومن جراء ذلك تكوّن المجتمع الطبقي (خلافا للمشاعي

الجاهليين الارستقراطيين القبليين الذين لا يعكسون بطبيعة الحال الواقع المر للوضع الاقتصادي والاجتماعي المتخلف لسكان شبه الجزيرة وانما نجد انعكاسه واضحا لدى الشعراء والصعاليك ، كالشنفرى وتأبط شرا وغيرهم ، يقول عمرو بن كلثوم الشاعر الارستقراطي في معلقته مترفعا عن الآخرين : ـ

ونشرب ، ان وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا

والملاحظ ان المؤثرات الاجنبية والمفردات الدخيلة أكثر وضوحا واستعمالا في أشعار الارستقراطيين الذين يفدون على بلاطات امراء المناذرة والغساسنة من شعر الشعراء الفقراء ـ الصعاليك •

(٣٣) وردت لفظة دين في النصوص اليمانية القديمة التي ترقى الى أيام المعينيين Glaser 1150, Halevy, 303. ، لاحظ : جواد علي ، المفصل ، ٢/١١١ ، كذلك وردت كلمات ناذر ، ونذر مما يقدم للمعابد •

(٣٤) ذكر عمر فروّخ : والمفروض أن يكون الرقيق غير عربي ، ولكن قد يؤسر عربي في الحرب ثم لا يستطيع افتداء نفسه بمال ، أو قد يستدين مالا ثم لا يستطيع وفاء دينه فيسترق • العرب في حضارتهم وثقافتهم ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ٧١ •

الخالي من الطبقات المستغلة والمستغلة) ، وقامت التناقضات بين السادة والعبيد ، وبين كبار ملاكي العبيد ـ والاراضي ، وبين الفلاحين الذين استمروا في زراعة الاراضي العامة مشاعا ، وبين هؤلاء الملاكين وصغار المنتجين والحرفيين الاحرار ، بين ملاكي العبيد وبين الارستقراطيين القبليين ـ رؤساء العشائر ـ من بقايا المشاعية .

نتيجة النضال ـ مثيرة اياه تلك التناقضات التي ذكرناها آنفا ـ تفكك ما في النظام القبلي ـ العشائري من مؤسسات (اعراف (Institution) أو تحولها الى هيئة قيادية ، حيث تظهر الدولة (السلطة ، الجيش والشرطة ، وجهاز الموظفين ، ونظام القوانين ، الذي تحرسه الدولة وتعززه) كمقر (Stabilizer) ومنظم (Regulator) للعلاقات بين الطبقات المتخاصمة لمنفعة السائدة منها[٣٥] ، وظهرت العلاقات الحقوقية والعلاقات السياسية ايضا[٣٦] ، وتطورت الديانة لتخدم مصالح الطبقة المستغلة[٣٧] ، وهكذا ظهر في المجتمع العبودي بنيان فوقي يختلف نوعيا عما كان لدى المجتمع البدائي من مؤسسات عليا . وهذا ما يمكن ملاحظته في المجتمع اليماني والقتباني والحضرمي الذي ظهرت فيه الحكومات وانقسم المجتمع الى طبقات وفئات ، فيذكر جواد علي :ـ (فالدولة العربية الجنوبية ، تجمع شمل قبائل عديدة كما تضم طوائف وفئات رسمت لها

---

(٣٥) انظر انكلز ، أصل العائلة ، ص ٢٠٣ .

(٣٦) انظر كونراد ، الغرب والشرق ، ص ٣٨ ، كيللي وكوفالزون، المادية التاريخية ، ص ١٦١ .

(٣٧) يذكر جواد علي ـ : وبفضل عثور الباحثين على كتابات تعود الى عهود مختلفة من تاريخ العربية الجنوبية . استطعنا الالمام بعض الالمام بشيء من نظم الدولة في تلك الاراضي . وفي جملتها طرق الحكم فيها ونفوذ رجال الدين وأصحاب الارض والحياة الاقتصادية التي جعلت العربية الجنوبية مجتمعا مكونا من طبقات ، يسيّره الحكام ورجال الدين وأصحاب المال والارض ، المفصل ، ١٧٩/٥ .

حدود معينة وحددت بحدود وقيود فلا تتجاوزها وقد حدد المجتمع مكانتها ومنزلتها بحيث جعل من المجتمع العربي الجنوبي مجتمعا طبقيا • يتمتع فيه الملوك ومن يأتي بعدهم من حكام وأصحاب معبد وأرض بأعلى المنازل ، ثم تليهم بقية الطبقات حسب قوتها ومكانتها الى ان تصل الى سواد الناس ، وأقلهم منزلة الرقيق وأصحاب الحرف المبتذلة(٣٨) ولكن رغم التفاصيل المسهبة في أبحاث الدكتور جواد علي ، ورغم أبحاث المستشرقين الواسعة التي أطلع عليها فانه لم يتعمق مافيه الكفاية في دراسة الطبقات والفئات الاجتماعية ولم يحاول بيان العلل والاسباب الموضوعية في نشوئها ، ان طبقات وفئات المجتمع العربي الجنوبي هي التالية :ـ

١ ـ الارستقراطيون مالكو العبيد والاراضي الواسعة : وعلى رأسهم العائلة المالكة ، وهم الطبقة السائدة في المجتمع ، التي تمتلك العبيد وبيدها الاراضي الواسعة ، وكان الملوك يقطعون الأرستقراطيين وكهنة المعابد الاراضي دوما ، ومن الارستقراطيين تتألف الاسر المالكة وممثليهم حكام الولايات وكهان المعابد (عم) وكبار الاغنياء والقادة والملاك والتجار ، ومن الارستقراطيين تتكون مجالس المدن (مسود لدى المعينيين ، مشود لدى السبئيين) ، وعلى غرارهما دار الندوة لدى قريش في مكة) التي تدير مع ممثل الملك (كبر) شؤون المدن لتقرير ما يخصها أثناء السلم والحرب ، ولتحكم بين الناس ، ولمشايخ القبائل مجالس مشابهة وللارستقراطيين السيادة والجاه والنفوذ ، واليهم بعد خزانة الدولة أو الملك والمعابد تجبى الضرائب الفادحة بالاضافة الى الخدمات العامة التي يقدمها أبناء الشعب • فيذكر جواد علي : (ودخل الحكومة من الضرائب ومن واردات الاراضين الحكومية التي تستغلها أو تؤجرها للناس بجعل يتفق عليه • اما الضرائب فتؤخذ من التجار والزراع وسائر طبقات الشعب الاخرى ، يجمعها

---

(٣٨) المفصل ، ٥/١٧٨ ـ ٩ •

المشايخ ، مشايخ القبائل والحكام والكبراء بوصفهم الهيئات الحكومية العليا ، وبعد اخراج حصصهم يقدّمون ما عليهم للملك • ثم يذكر :- ومن الضرائب التي وردت اسماؤها في الكتابات : العقود ووفاء الضرائب والديون ، ضريبة دعيت بـ (فرعم) أي (فرع) وضريبة عرفت بـ (عشرم) أي (عشر) وتؤخذ من عشر الحاصل ••• وكان للمعابد جبايات خاصة بها ، وارضون واسعة تستغلها ، كما كان لها موارد ضخمة من النذور التي تقدم اليها باسم آلهة معين •

وقد يفوض الملك أو المعبد الى رئيس أو سيد قبيلة أو غني استغلال مقاطعة أو منجم أو أي مشروع آخر في مقابل شروط تدوّن في الكتابات ، فتحدد الحدود ، وتعيّن المعالم وينشط المستغل للاستفادة منها واداء ما اتفق عليه من اداء للجهة التي تعاقد معها ، ويقوم بجباية حقوق الارض ان كان قد أجرها لصغار المزارعين ويدفع اجور الاجراء وبتمشية الاعمال ، ويكون هو وحده المسؤول امام الحكومة أو المعبد عن كل ما يتعلق بالعمل • ويتعهد الكبراء وسادات القبائل والحكام عادة بجمع الضرائب من اتباعهم ودفع حصة الحكومة ، كما يتعهدون بانشاء الابنية العامة كأنشاء المباني الحكومية واحكام أسوار المدن وبناء الحصون والابراج والمعابد وما شاكل ذلك ، مقابل ما هو مفروض عليهم من ضرائب وواجبات أو تفويض التصرف في الارض العامة •

وتعهد المعابد ايضا للرؤساء والمشايخ القيام بالاعمال التي تريد القيام بها ، مثل انشاء المعابد وصيانتها وترميمها والعناية باملاكها وباستغلالها بزرعها واستثمارها نيابة عنها(٣٩) •

---

(٣٩) المفصّل ، ٢/١١٠ - ١١٢ • أما الاسياد ورؤساء المشايخ فالمقصود بهم حتما الارستقراطيين وليس رؤساء القبائل التي تعيش عيشة مشاعية •

يتضح مما تقدم جسامة المسؤوليات التي تمارسها هـذه الطبقـة في الحياة الاقتصادية ومركزها السامي في الحياة الاجتماعيـة وسـيطرتها في الحياة السياسية والدينية ، فلا غرابة اذن في ان سبب تحطم البلاد واقفارها يعود بالدرجة الاولى الى تفسخ هذه الطبقـة وتبذيرها الامـوال لشؤونها الخاصة دون المرافق العامة والى جورها وارهاقها لابناء شعبهـا بالضرائب الفادحة وأعمال السخرة المشينة ومما عجل في تقريب الكارثة اهمال هذه الطبقة السدود والقنوات الكثيرة ولم يتوان أبناء الطبقة هذه من الاستنجاد بالاجنبي من أجل استعادة سابق نفوذها ـ كمـا فعل سيف بن ذي يزن الذي استجار بالايرانيين لطرد الاحباش ، وكان حال اليمانيين مع الايرانيين كالمستجير من الرمضاء بالنار . لقد تقلّص نفوذ الأسر الارستقراطية بسبب من الوهن الذي أصابها ومن جراء الاحتلال الاجنبي الذي أصابها فأرغمت على الانحسار عن اللوحة السياسية والانزواء في مقاطعـاتها وقلاعها المحافد، المخاليف ، القصـور ، البروج) ، وبرزت الى مسـرح الحياة السـياسية الارستقراطية الاجنبية (الابناء الايرانية) [٤٠] .

٢ ـ العبيد ، ومصدرهم ـ كما قلنا سابقـاً ـ عن طريق النخاسـة (تجارة العبيد) ، وايفاء الديون ، وسبي الحروب ، ويستخدم العبيد ، في الفلاحة والحرف المتنوعة بالاضافة الى الاعمال المنزلية وفي المعابد وفي حراسة القوافل وخدمتها (وبالرغم من أن عمل الرقيق كـان ذا مردود قليل ويعطي قليلا من المنتوج الفائض ، فان أستثمار جماهير العبيد الواسعة كان يجلب للمالكين ثروات هائلة)[٤١] ، كان العبيد العنصر الاساسي في

---

(٤٠) انظر رينولد نيكلسن ، تاريخ العرب الادبي في الجاهليـة وصـدر الاسـلام ، ترجمـة الدكتور صفـاء خلوصي ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٤١) ف. كيللي و م. كوفالزون ، المادية التاريخة ، ص ١٦١ .

الانتاج ، وكان الشكل الغالب على تملك العبيد فردياً : ظهر الشكل العام لتملك العبيد (عبيد الدولة[٤٢] ، المعابد ـ ومنهم راقصات المعابد) في المرحلة المتأخرة جدا من نظام العبودية ، والصنف الاخير غير منتجين[٤٣] وانما مساعدين ثانويين لهيئة المؤسسات الحكومية والدينية .

٣ ـ الفلاحون : منذ المشاعية والفلاحون يزرعون الاراضي العامة جماعيا ، واستمروا مع ظهور الملكية الفردية غير أن المساحات المزروعة من قبلهم أخذت بالتقلص بتناسب عكسي مع توزيع الملوك للاراضى العامة على ملاك العبيد ، فأخذت الاراضى العامة بالتقلص وقلت واردات الفلاحين الاحرار من جراء انخفاض أسعار المنتوجات التي يبيعها ملاك العبيد أصحاب الاراضى الواسعة وكهانا لمعابد . فمن جراء تقلص أراضيهم العامة وضعف مردود انتاجها وانخفاضه اضطر المزارعون الاحرار الى عرض خدماتهم الى الملاكين وكهان المعابد ليشتغلوا لديهم مزارعين بموجب شروط جائرة ثقيلة حيث يدفعون ضرائب مقننة ويقدمون خدمات خاصة في حقول ومزارع الملاكين والمعابد الخاصة ويقومون بخدمات عامة ، ويدفع الفلاحون ضرائب عامة ونذور دينية للمعابد ، هنالك كتابات كثيرة عثر عليها المستشرقون وحلّو رموزها وفيها نصوص تعين مقدار الضرائب وطرائق جبايتها وكيفية المغارسة وتحديد حدود استغلال الاراضي وتعيين أصحاب النفوذ الذين فوّض اليهم أمر الاشراف واستلام حصص الحكومة وحصص المعابد . وبالاضافة الى الفلاحين الاحرار الذين ارتبطوا بأراضي الملاكين فهناك الاعداد الهائلة من العبيد الذين يشتغلون لدى أسيادهم في فلاحة الارض .

---

(٤٢) أي ملكا للرئيس أو الملك ، لانكه ، الاقتصاد السياسي ، ص ٨٠ .

(٤٣) كونراد ، الغرب والشرق ، ص ٣٨ .

٤ ـ أصحاب الحرف والمهن البسيطة وصغار الباعة : أدى توفير الانتاج وظهور التملك الفردي الى تغيير اسلوب الانتاج من المشاعي البدائي الى العبودي ، الذي رافقه تقسيم العمل العضلي ، والذهني فظهرت الحرف والمهن المتعددة يقوم بها أشخاص متخصصون بتلك الاعمال • ونتيجة لتطور المجتمع العربي الجنوبي القديم فقد ظهرت فيه حرف ومهن متعددة فظهر حرفيون يشتغلون في صنع الاسلحة والاواني والنجارة والحدادة والتعدين والصياغة والبناء وغيرها • وكان العبيد يسخّرون للعمل في تلك الحرف أيضاً • وكان يقوم ببيع وشراء السلع والاغذية والالبسة وباقي الحاجيات باعة صغارهم وسطاء بين كبار التجار الجشعين وبين المستهلكين •

وبالرغم من أن الاعمال الجسيمة ـ بناء السدود العظيمة والقلاع الحصينة والمعابد الضخمة والقصور الفخمة والمصنوعات البديعة ـ قد قامت بهمة وسواعد هؤلاء العمال المهرة المنسيين ، فان النصوص القديمة قد أهملت ذكرهم ، لقلة شأن هؤلاء بنظر المجتمع الارستقراطي القديم •

ومن العبيد والفلاحين ومن أصحاب الحرف والمهن وصغار الباعة تألفت جيوش العرب الجنوبيين •

٥ ـ الرحالة والقبائل : بالرغم من استقرار المجتمع بعد احترافه الزراعة وانتقاله الى المجتمع العبودي غير المركّز ، فان أقساما ليست بقليلة ظلت تعيش المشاعية البدائية ، وهي اما رعوية تحيى حياة تنقلية أو زراعية تزرع أراضيها المشاعة جماعيا ، وفي كلتا الحالتين كانت تسودها روابط الدم القبلية والولاء (العصبية) للقبيلة ولشيوخها الذين يكونون مسؤولين عن عشائرهم قبل الحكومات ، وكان لهذه العشائر مجالسها (أو انديتها) لحل مشاكلها ومنازعاتها ومحل سمرها ولهوها أيضا (وهي ما تشبه المضايف والدواوين لدى العشائر العراقية الى وقت قريب) ، وكانت هذه القبائل تعيش في حالة ضنك وشظف واملاق لانخفاض الانتاج لديهم

ويتعرض أفرادها وحيواناتها للموت جوعا عند أقل تذبذبات الاحوال المناخية وهجمات الآفات الزراعية ـ كالجراد ـ حيث تحل لديهم المجاعات. كان أبناء القبائل يساهمون بنقل البضائع والمنتجات الزراعية والتجارية ، وذكرهم في النصوص قليل غير ان أسماء مشايخهم ترد أسفل التشريعات بعد توقيع الملوك والاشراف والكهان عليها على أساس تأييدهم لها والتزامهم بها حيث كانوا (المشايخ) مسؤولين بجمع الضرائب ودفعها للحكام .

ويشير جرجي زيدان الى أن المؤرخ سترابون (قد ذكر ضربا من الاشتراكية عند اولئك الاعراب غريبا في بابه فبعد أن أورد اشتراك كل عائلة بالاموال والمتاع بين أفرادها ، وان رئيسها أكبر رجالها سناً)(٤٤) ، والقول يذهب ، حتماً ، الى سيادة المشاعية ، التي نعتها بالاشتراكية ، بين القبائل الرحالة فحسب .

أما في الحجاز ونجد فقد ساد مجتمع المشاعية البدائية فيهما مدة طويلة ، ونظراً لغلبة الحياة الرعوية التنقلية ـ البدوية على حياة الاستقرار المدينية (كانت نسبة أهل المدن في الحجاز حوالي ١٧٪ وفي نجد دون هذه النسبة) فقد لفت مناطق الحجاز ونجد الروابط القبلية القائمة على النسب والدم ، الولاء (العصبية) للقبيلة ، وكما نعلم فان مستوى انتاج المجتمع القبلي ضعيف ، لهذا لم يقم نظام حكومي بمؤسساته المعروفة في هذه الاصقاع حيث تميل القبائل للعزلة والخصام ويميل الفرد الى الحرية السائبة المشروطة باعراف القبيلة (كل ما هو داخل القبيلة محترم ومطاع ، وكل ما هو خارجها خارج القانون والعرف) ويجنف عن الطاعة لغير عشيرته ، بينما الدولة بمؤسساتها المتعددة ـ كما شاهدنا قيامها في الجنوب الغربي نتاج المجتمع الطبقي ، نتاج التناقضات الطبقية . اننا لا يمكننا أن

---

(٤٤) العرب قبل الاسلام ، ص ١٥٨ .

تتفق مع الدكتور جواد علي الذي يعتبر الاعراف والمؤسسات القبلية بمثابة دولة حين يقول : ـ (اقصد بالدولة الشعب والحزب أو الجماعة الحاكمة له في أرضه وتحت سلطانه وفي حيازته وملكه • لذلك لا اشترط في هذه الدولة أن تكون دولة كبيرة كالدولة الرومانية أو اليونانية أو الساسانية ، فقد تكون الدولة حكومة قرية مثل يثرب أو مكة ، وقد تكون حكومة قبيلة ، وقد تكون أكبر من ذلك وأوسع مثل دولة الحيرة ودولة الغساسنة ودول اليمن • فلا علاقة اذن لكبر أو لصغر الحكومة بمفهوم الدولة في نظرى ، فكل حكومة جاهلية مستقلة ، هي عندي مع شعبها أى التابعين لها دولة صغرت أم كبرت • والشعب في الجاهلية وعند الجاهليين ، هو القبيلة • فالقبيلة هي أصل الدولة ونواتها ، وتقوم على رابطة الدم ، أي على فكرة ان القبيلة هي من صلب رجل عاش حقاً ومات ، وان أفرادها من هنا يرتبطون بينهم بروابط الدم ، أي ان بينهم قرابة وصلة رحم • أما وطن القبيلة ، فالارض[٤٥] التي نشأت فيها ، ثم الارض التي هي عليها. فمن القبيلة ومن أرضها ، تكوّنت دولتها وعلى رأسها سيد القبيلة)[٤٦] • لا يمكن العثور على أي مبرر معقول يحمل الدكتور جواد علي على هذا الخلط العجيب بين الدولة ذات العناصر المعروفة وبين القبيلة ، وعلى الانفراد بتصور الهيئات أو المجالس والمشيخات المتزعمة في القبائل بأنها حكومات • فبالرغم من ورود كلمة (ملك)[٤٧] تطلق في الجنوب أو في

---

(٤٥) يذكر الدكتور صالح أحمد العلي : (وتستوفي القبيلة كافة مقومات الدولة سوى الارض المعينة المحددة) • محاضرات في تاريخ العرب، جـ١ ط٣ ، بغداد ، ١٩٦٤ ، ص ١٥٢ • وبالرغم من عدم وجود أرض محددة للقبائل الرحالة فان الدكتور جواد علي يصر على اعتبار القبيلة دولة •

(٤٦) المفصّل ، ١٧٨/٥ •

(٤٧) ن•م• ، ١٩٢/٥ •

الشمال (على امراء كندة مثلا) على رؤساء القبائل فان ذلك لا يبرر تسمية الهيئات ورؤساء القبائل في المجتمعات البدائية بالحكومة • لقد ذكر النسابة والمؤرخون العرب كلمة ملك وأطلقوها على بعض رؤساء العشائر الكبار تجاوزا غير أن المستشرقين (البرايت ، ريكمنس ، غلاسر ، فلبي ، هومل ، رودوكناكس ، كروهمن ، هارتمان ، نولدكه ••• وآخرون غيرهم) الذين دوّنوا القوائم بملوك اليمن وحضرموت وقتبان وامراء الغساسنة والحيرة لم يذكروا أسم ملك من رؤساء العشائر • ان الحكومات لا تقوم الا في مجتمع طبقي ، وقد لاحظ الدكتور جواد نفسه ذلك بأن حكومات الجنوب الغربي قامت في مجتمع طبقي : (أنظر هامشنا رقم ٣٧ ، أنظر المفصل ، ٥/١٧٨ - ٠٩) ، ان هذا التفهم لواقع الدولة في المجتمع الطبقي وقيامها فيه لا يفسح المجال للتوهم بقيام دولة في القبيلة المشاعية أبدا •ف (ول ديورانت) بعد أن يستعرض آراء الفلاسفة والمؤرخين البرجوازيين الذين يشيرون الى سيطرة جماعة أو قبيلة قوية على عدة قبائل بالعنف[٤٨] والاكراه ، يستخلص بأن (قيام الدولة يقتضي تغيراً في مبدأ التنظيم الاجتماعي من أساسه فيكون المبدأ هو أن يكون الحكم لمن يسيطر بدل أن يكون لذوي القربى كما كانت القاعدة السائدة في المجتمعات البدائية ، وانما يكون نظام السيطرة في انجح حالاته اذا ما ربط عدة جماعات طبيعية مختلفة ، بعضها ببعض برباط يفيدها من نظام وتجارة)[٤٩] • ان الدولة تختلف عن القبيلة والعشيرة بأمور عديدة

---

(٤٨) يذكر ول ديورانت بأن (هذا الاخضاع العنيف انما يقع عادة على جماعة زراعية مستقرة ، من قبيلة من الصائدين والرعاة) • قصة الحضارة ، جـ١ ، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ١/٤٤ ، والمؤرخين والفلاسفة الذين استشهد بأقوالهم هم : نيتشه ليستر وورد ، أوينهيمر ، راتسنهوفر ، جمبلوفش ، وسمنر ، قصة الحضارة ، ١/٤٤ •

(٤٩) قصة الحضارة ، ١/٤٥ •

منها ان الاوامر والانظمة واطاعتها اجبارية في الدولة ولكنهـا طوعيـة في العشيرة التي تقتصر على سكان محدودين يعيشون في أراضي غير محددة لا وجود للتناقضات الطبقية بين أفرادها بعكس الدولة التي تضم مجموعة أكبر من السكان يعيشون على أراضي محددة ارغمت التناقضات القائمة بين الطبقات على قيام نظام يلجم تضاد الطبقات • فيذكر انكلز (واذن ليست الدولة بأية صورة قوة مفروضة على المجتمع من الخارج • ولا هي أيضا تحقيق لفكـرة الاخلاقيـة La Realisation De L'idee Morale (صورة العقل وتحقيقه) كما يزعم هيكل La Realisation De la Raison كلا ، بل هي نتاج المجتمـع في مرحلة معينـة من مراحل التطـور • انهـا الاعتراف بأن هذا المجتمع قد وقع مع نفسه في تناقض لاسـبيل الى حله • وبأنه قد اسفر عن تناقضات لا سبيل الى تسويتها وليس في وسعه نبذها • ولكن لكي لا تفني هذه التناقضات ، أى الطبقات المتعادية ذوات المصـالح الاقتصادية المتناقضة ، بعضها بعضها ، ولكي لا تفني المجتمع معها في معركة لا طائل تحتها ، لم يكن بدّ من ظهور قوة تقف ظاهريا فوق المجتمع من أجل التخفيف من حدة الصراع وحصره ضمن حدود (النظام) : هـذه القوة التي تنبثق من المجتمع ، لكن تضع نفسها فوقه وتزداد غربة عنه هي الدولة)[٥٠] • وقد حلل هذه المقولات ببراعة واستنتج منهـا لينين : (••• بما أن الدولة قد نشأت من الحاجة الى لجم تضاد الطبقات ، وبما أنها قد نشأت في الوقت نفسه ضمن الاصطدامات بين هذه الطبقات ، فهي كقاعدة عامة دولة الطبقة الاقوى السائدة اقتصاديا والتي تصبح عن طريق الدولة الطبقة السائدة سياسيا أيضا ، وتكتسب على هذه الصـورة وسـائل جديدة لقمع الطبقة المظلومة واستثمارها •••)[٥١] وكتب لينين أيضـا

---

(٥٠) أصل العائلة ، ص ٢٠٣ •

(٥١) مختارات ، (باللغة العربية) ، دار التقـدم ، موسـكـو ، ١٩٦٨ ، ١٨٧/٢ ـ ٨ •

(وهكذا ، فالدولة لم توجد منذ الازل • فقد وجدت مجتمعات كانت في غنى عن الدولة ولم يكن لديها أية فكرة عن الدولة وسلطة الدولة • وعندما بلغ التطور الاقتصادي درجة اقترنت بالضرورة بانقسام المجتمع الى طبقات ، غدت الدولة بحكم هذا الانقسام أمرا ضروريا)[٥٢] • من هذا نجد ان قيام دولة في مجتمع طبقي أمر محتم تاريخي[٥٣] بينما يتعذر قيام الدولة في المجتمع القبلي المشاعي الخالي من الطبقات ، ولهذا فان الحجاز ونجد قد حرما من قيام دول فيهما نظرا لاعاقة الظروف الطبيعية ، التضاريسية المناخية ، الصحارى ، لفترة طويلة وخاصة في نجد ، ولحياة التنقل الرعوية من قيام اقتصاد قوى ذى انتاج سلعي ، ولأن النظام العشائري ـ كما لاحظنا سابقا ـ يفترض شكلا من الانتاج منخفضا جدا ، فساد فيهما مجتمع المشاعية بعلاقاته القبلية العائقة لقيام أية وحدة أو تنظيم سياسي (عدا تنظيمات محلية قامت في الاخير ويطلق عليها ـ تجاوزا ـ حكومات مدن : يثرب ، مكة ، خيبر ، تيماء ، الطائف •• الخ) ، فظل العرف القبلي والعلاقات البدائية هما الدستور غير المسطور والقانون الذى يتحكم في المجتمع • ولربما كانت لحياة سكان الحجاز ونجد شبه الانعزالية بالاضافة الى اقتصادهما المتدهور من أثر في تخلف المجتمع عن مواكبة المسيرة التطورية لركب الحضارة البشرية حيث تقدمت المجموعات البشرية في كل من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر واليونان وايطاليا وايران ولحد ما في اليمن ، أشواطا بعيدة في مضمار الحضارة والرقي ، بينما ظلت غالبية أبناء مجتمع الحجاز ونجد غارقة في الجهل ، تسودها الخرافات ، أمية (باستثناء بعض الافراد ممن اتيحت لهم فرص الاتصال بابناء المواكب

---

(٥٢) ن٠م٠ ، ٢/١٩١ •

(٥٣) ان ظهور الدولة في المجتمع الطبقي ليس صدفة تاريخية ، وانما طبيعة (أي بموجب القوانين الطبيعية) تاريخية •

البشرية المتقدمة في المناطق المتحضرة من بلدان الشرق الادنى ، وعن طريق التحصيل) ، تنغمس في اللهو والملذات بعد اقتسام أسلاب الغزوات ، سرعان ما تفتك بها الامراض والآفات والمجاعات والغزوات ، وهم لذلك عرضة للحرمان من جراء قساوة الطبيعة واعتداء الانسان . فالصحراء المترامية الاطراف والمهددة ساكنيها دوما بالقحط والموت ، لا تسمح ، الا في مساحات ضيقة (الواحات) ولفئات محدودة ، بالاستقرار ، بل أنها خلقت الظروف لحياة التنقل والارتحال والتفكك والخصام وتخلق شعورا من الفردية المفرطة في العصبية للجماعة الصغيرة ومحباً للثأر والانتقام وعدم التفكير بالوحدة والانسجام ، ولهذا كانت تغمر شبه الجزيرة العربية الحروب (الايام) التي كانت تتوفر فيها فرص الغزو والفتك والنهب وانتهاك الاعراض واظهار أعمال البطولة والخسة على السواء (العفو والفتك والكرم والسلب ... الخ) ، ان الانتقال المستمر والتقاتل من أجل البقاء دفع أبناء القبائل للتخاصم حتى بين بطون وأفخاذ العشيرة الواحدة بسبب من المصالح الاقتصادية وان كان يجمعها النسب أحيانا(٥٤) .

كان للشعراء ، أن وجدوا ، في أي عشيرة أو مجموعة متخاصمة ، دور بارز في شحذ همم واثارة حماسة جماعتهم ، بما يرمون الخصم به من قاذع الهجاء وتذكير أبناء قومهم بالمفاخر الاسطورية للعشيرة وأختلاقها ، وكانت كلمات الشاعر أكثر أثرا من سهام أبطال القبيلة وكانت الجروح التي تتركها هذه الكلمات أعمق من الجروح التي تحدثها السهام ، فقد كانت تصيب شرف القبائل وتتداولها الاجيال(٥٥) ، ولهذا كان الشاعر ،

---

(٥٤) عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٧٨ .

(٥٥) خودا بخش ، المؤرخ الهندي ، الحضارة الاسلامية ، ترجمة علي حسني الخربوطلي ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٤ ، لاحظ الهامش.

لسان حال العشيرة والداعية لها والذائد عنها ، معززا مكرما لدى قومه ، وكانت لفطاحل الشعراء مراكزهم المرموقة في الندوات الادبية التي تقام عادة في الاسواق الموسمية السلمية (خلال العام المفعم بالحروب والخصومات والمنازعات اتفق العرب على اعتبار أربعة أشهر حرم فقط ـ ذو القعدة ، ذو الحجة ، محرم ، ورجب ـ وفيها تعقد الاسواق) المنتشرة في شبه الجزيرة العربية مثل دومة الجندل ، عكاظ ، المجاز ، عدن ، وهجر ، وغيرها ، وفي بلاطات امراء المناذرة والغساسنة .

لقد نقلت لنا تلك الاشعار والقصص غير المتطورة فنيا الساذجة البسيطة ـ رغم الارتباك والتناقض والاختلاق في أكثرها ـ صورا مفعمة بالبؤس والمآسي والشقاء من حياة البداوة وسط الصحارى القاحلة التي ارغمت سكانها ـ الا ما ندر ، في بعض أطرافها وفي الواحات القليلة المبعثرة هنا وهناك ـ على العيش في حالة بؤس واملاق ، مجبرة اياهم على التنقل والارتحال جماعات طلباً للماء والكلأ ، والذى بسببهما ولانعدام موارد الرزق الاخرى (عدا الزراعة على نطاق ضيق جدا وعدا حراسة قوافل التجارة « التفويز ») ، ولاستغلال الشيوخ الاقوياء الكبار فيما بعد للمراتع الخصبة وحرمانهم للمدقعين من رحالة البوادي[٥٦] من رعي مواشيهم والتفيء في حماهم (أرض الحمى = الاراضي العامة) كانت تقوم الحروب الطويلة (٤٠ عاما ، كما تزعم الروايات ، كحرب البسوس بين بكر وتغلب ، وداحس والغبراء بين عبس وذبيان) والغزوات القصيرة ، وتعرف هذه الحروب والغزوات بـ (أيام العرب)[٥٧] ، وهي كثيرة

رقم ـ١ـ حيث نقل عن المستشرق المجري اجناس گولدزبهير (گولد تسهير) .

(٥٦) عمر فرّوخ ، تاريخ الجاهلية ، ص ٨ ٠٧.

(٥٧) افرد ابن الاثير في كتابه الكامل في التاريخ بحثا عن كل ما وصل اليه من أخبار أيام العرب ، ويمكن مطالعة البحث المقتضب القيم عن أيام العرب لعمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، ص ٧٧ ـ ١٤٨ .

لا تدخل تحت حصر ، وكانت مظهرا للصراع من أجل الحياة ، بل ان حياة العرب الاقتصادية ـ كما يشير عمر فرّوخ ـ كانت قائمة في الحقيقة على الغزو(٥٨) . غير أن هذه الانماط الطفيلية من الحياة تجعل ممتهنيها يصبحون عالة على سواهم ، ولهذا نرى ابن خلدون يستهجن تلك الاساليب والانماط من الحياة وهو ينظر اليها بنظرة أبناء المجتمع الاقطاعي المتقدم الازدرائية فيقول : (ان العرب جعلوا أرزاقهم في البادية في أطراف رماحهم ومعاشهم فيها بأيدي غيرهم)(٥٩) . اننا لو حكمنا على تلك الاعمال التي مارسها الاقدمون بمقاييسنا الحاضرة لكانت نظرتنا الى تلك الاعمال كنظرتنا الى أعمال السرقة وقطع الطرق والسلب العام ولنظرنا اليهم كنظرتنا الى قطاع الطرق والخارجين على القانون واعتبرنا جميع أعمالهم مشينة وخسيسة ، بينما كانوا هم يعدّونها من أعمال البطولة الجليلة ومن صميم أمجادهم ومفاخرهم بحيث يفاخرون ويزدادون شرفا ورفعة بكثرة قتلاهم وغزارة مغانمهم . لقد أرغمتهم الحياة الرعوية التنقلية على ممارسة تلك الاعمال وتبريرها وصار اعتمادهم عليها ولا يفكرون من جرائها

---

(٥٨) عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، ص ٧٩ . نعتقد أن فروخ قد بالغ في رأيه فالى جانب الغزو كانت الزراعة في الواحات وحماية التجارة (التفويز) والمتاجرة وغيرها ، ويرى عمر فروخ بأن الاسباب التي كانت باعثة على نشوب أيام العرب : ـ

١ ـ اقتصادية ـ البسوس مثلا ـ ان كليب وائل قد حمى أراضي واسعة واستبد بمراعيها ومائها ومنع عددا من القبائل من أن تستسقي منها وترعى فيها .

٢ ـ سياسية كما بين الاوس والخزرج من أجل السيطرة على البلد (يثرب) .

٣ ـ أجنبية كما حصل في (عين أباغ وحليمة) بين المناذرة والغساسنة ، وكان وراء الحوادث الساسانيون والبيزنطيون ، تاريخ الجاهلية ، ص ٧٨ .

(٥٩) المقدمة ، القاهرة ، ١٣٢٢هـ ، ص ٢١٤ .

بمستقبل فأصبحوا رغم فقرهم مغرمين بالخمرة والجنس (الاطيان)، يبذرون ما غنموا ويعاودون الغزو .

وكان في مجتمع الحجاز ونجد ممارسة قتل الاولاد ـ خشية الفقر والاملاق (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئاً كبيرا)[٦٠] ، (ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم)[٦١] ، وقد مارست الشعوب هذه العملية الوحشية لتلافي انفتاح ثغور واسعة تلتهم في المستقبل الطعام الذي تحصل عليه العائلة بجهود عسيرة ، ثم اقتصر لدى العرب أخيرا على الاناث ـ وأد البنات) على أساس أنهن عاجزات عن ايجاد مورد رزق لهن في المستقبل المظلم وقاصرات عن الدفاع عن أعراضهن وشرفهن عند الغزو المرتقب ، ان تفكك المشاعية وظهور تقسيم الاعمال بين الذكور والاناث (الرجال للصيد والقنص والغزو ، والنساء للرعي ورعاية الاطفال والاعمال المنزلية) أفرد السيطرة للرجل ودفع بمكانة المرأة الى الوراء مما أثر في تفكيرها وانحطاط منزلتها واهانة كرامتها وفرض عليها تصور العجز والقصور وعدم المساواة بالرجل ، لهذا اعتبرت من أمتعة الرجل ويخشى عليها الوقوع بأيدي المغيرين المغتصبين المتهتكين (واذا بشّر أحدهم بالانثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به أيمسكه على هون أم يدسّه في التراب ألا ساء ما يحكمون)[٦٢] . لقد ورث العرب الاقدمون كبقية الشعوب علاقات جنسية واطئة تخلصوا منها تدريجيا وقد حرّم الاسلام أنواعاً كثيرة من تلك الزيجات المتعارف عليها في الجاهلية ، هذا بالاضافة الى أن السبي كان مباحاً كما كان زواج الامهات والاخوات[٦٣] .

---

(٦٠) سورة الاسراء ـ ٣١ .
(٦١) سورة الانعام ـ ١٥١ .
(٦٢) سورة النحل ـ ٥٨ ـ ٥٩ .
(٦٣) لاحظ سورة النساء الآية ٢٢ ـ ٢٣ وما بعدها .

ان البحث لهذه المسألة في الواقع يحتم ـ كما يذكر بونييانوف عند كلامه عن العلاقات الجنسية لدى الخرّميّين ـ ملاحظة الرواسب الدينية للزواج الجماعي البدائي كانت معروفة لشعوب كل البلدان تقريبا أحيانا تحت ستار الاعراف الدينية الرسمية والاخلاقية والقانونية ، وعلى الرغم من من هذه الاعراف أحياناً[٦٤] . هذا ما لا يقبل الجدل وليس هنالك فسق ما (لا يمكن تفهم ظروف المجتمع البدائي طالما كنا ننظر اليه نظرتنا الى دور البغاء)[٦٥] .

لكن المجتمع في الحجاز لم يبق على حاله اذ ظهرت فيه رويداً رويداً تغييرات نتيجة تطور اقتصاده اثر هجرات مستمرة ـ كما لاحظنا عند كلامنا عن الوضع الاقتصادي ـ من مجموعات بشرية متحضرة (من الشمال والجنوب ومن أديان مختلفة) الى محطات القوافل الناشئة على الطرق التجارية التي تخترق الحجاز والى بعض الواحات الخصبة التي هي في أغلب الاحيان محطات القوافل التجارية (كيثرب ، فدك ، خيبر ، تيماء ، والطائف ... الخ) ، ومزاولتها لمهن الزراعة والتجارة والحرف المتصلة بها (تجمع القوى المنتجة) ونشوء مراكز تجارية ، مكة مثلا ، تكوّنت علاقات اجتماعية جديدة بعد أن أخذت المشاعية (الجماعية) بالانحلال والتفكك وتفقد عموميتها لتظهر معها مقتنيات وممتلكات فردية ، أساس

---

(٦٤) المستشرق ضياء موسايفيج بونييانوف ، حول مصطلح (خرّم) ، مجلة أخبار أكاديمية علوم الجمهورية الآذربيجانية السوفيتية حلقة العلوم الاجتماعية ١٩٥٩ ، العدد الثاني ، ص ٤٨ ، وهو هنا يستخدم أقوال انكلز حول العلاقات الجنسية ، في كتابه أصل العائلة (باللغة الروسية) ، طبعة موسكو ، ١٩٥٢ ، ص ٢٦ ـ ٨٥ .

(٦٥) يشير بونييانوف الى انكلز ـ أصل العائلة ، طبعة موسكو ، ص ٣٥ ، ولقد ورد النص في الترجمة العربية على هذه الصورة (أما أنا فيبدو لي ان أي فهم للاحوال البدائية سيظل مستحيلا ما دمنا ننظر اليه بمنظار الدعارة) ، أصل العائلة ، ص ٤٢ .

الاستغلال الشخصي ، فنشأت قبيل ظهور الاسلام طبقة ارستقراطية قبلية متنفذة (الملأ) تستغل أموالها في الزراعة والتجارة واقراض المال (الربا)[٦٦] ، وتستخدم العبيد وتستغل الاحرار ، فظهر ملّاك وتجار ونخاسون ومرابون ، وكانوا يتعاطون الربا الفاحش ، ويستثمرون رؤوس أموالهم بنطاق واسع في تجهيز القوافل الكبيرة واستثمار الاراضي الزراعية (وان كان على نطاق أضيق) وشيئاً فشيئاً أخذت تبرز مكانة قريش لتتزعم القبائل العربية بما تكدس لديها من المال من أرباحها في التجارة والربا والنخاسة واستغلال العبيد ومن النفوذ الروحي لاحتكارها واشرافها على الوظائف الدينية : الافاضة (الاشراف على انسراح القبائل من منى بعد نزولها من عرفات وانتهاء مناسك الحج) ، والنسيء : (تعيين الشهر الاضافي في كل ثلاثة أعوام لتتطابق أشهر الحرم الاربعة مع الفصول الموسمية الاربعة) ، وعمارة البيت الحرام ، الرفادة (اطعام الحجاج) ، والسقاية (اسقاء الحجاج بفناء الكعبة وفي منى وعرفات) ، وسدانة الكعبة ، والنفوذ السياسي والعسكري (أسس قصي دار الندوة على غرار مسود المعينيين ، وكان لقريش اللواء ـ العلم الذي يرفع في المعارك) وبالمحالفات (الايلاف ـ الحبال) المعقودة مع القبائل القوية والامارات والحكومات التي تصلهم قوافلها (قريش) التجارية . فأصبحت مكة وكأنها جمهورية صغيرة تجارية يرأسها ـ كما يذكر فيليب حتي ـ الموسرون من أكابر قريش ومقدميها الذين أتاحت لهم موارد التجارة ومناصب البيت الحرام جاها ووسائل للترف على أوسع نطاق[٦٧] . ولكن نظرا لضعف التطور

---

(٦٦) بلغ صيت يهود تيماء في اقراض الاموال حتى قصدها الشاعر الامير امرؤ القيس لايداع سلاحه رهينة لدى صموئيل (السموأل بن عاديا) مقابل اقتراض المال للسفر الى القسطنطينية كما تزعم الروايات . واشتهرت قريش بالربا الفاحش الذي حرمه الاسلام وكافحه .

(٦٧) تاريخ العرب (مطوّل) ، ط ٤ ، ١٤٥/١ .

الاقتصادي ، فانه لم تختلق الضرورة بعد لقيام كيانات سياسية متطورة لعدم تعمق التناقضات الطبقية .

لقد تقلص لدى القريشيين ، نتيجة تراكم الغنى وتوسع النفوذ ، وانحلال مجتمع المشاعية ، الاهتمام بالروابط والمثل القبلية العاطفية القديمة حيث بدأوا ينظرون الى الآخرين بمنظار مصالحهم المادية البحتة . وينطلقون في تصرفاتهم وعلاقاتهم بغيرهم من زوايا منافعهم الخاصة وأخذوا يبتعدون ويترفعون عن متوسطي الحال والمعدمين من أحرار وعبيد أهل مكة ، حتى تألف حلف الفضول من بعض السادة الذين هالهم تمادي واستهتار الآخرين ، ذوي القلوب الغليظة الذين يتجاوزون على حقوق غيرهم ، يذكر ابن هشام صاحب السيرة عن حلف الفضول : (فتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته)[٦٨] . وكان حلفهم تحديا للمستغلين من قريش الذين كوّنوا لانفسهم حلفا دعي بحلف لعقة الدم . كان القريشيون مسيطرين على البلد بما يشبه مجلس الشيوخ الارستقراطي ـ دار الندوة ، حيث تعقد فيه الندوات لبحث مختلف امور السلم والحرب والقضايا التجارية والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية وحتى الاعلان عن بلوغ الفتيات حيث يشق عليهن جيوب دراعياتهن من قبل امهاتهن بدار الندوة . وكان المجلس (دار الندوة ـ نظريا لا يدخله الا من تجاوز الاربعين) يخدم مصلحة الارستقراطية القريشية حيث لا يتداول في امور من هم دونهم .

اما في نجد فقد استمر مجتمع المشاعية سائدا لفترة أطول وظل النظام القبلي هو السائد وان ظهرت ممتلكات فردية ساعدت على تباين قليل حيث

---

(٦٨) عبدالملك بن هشام ، السيرة ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، جـ١ ، ص ١٤١ .

ظهرت الارستقراطية القبلية التي مالت الى الاستغلال ولكن طبيعة العلاقات القبلية كانت لا تسمح بنمو التناقضات وحدّتها ولكن ظهر بذور الامتعاض من انفراد المشايخ بالمنافع • فحروب البسوس وداحس والغبراء ومصرع حجر بن الحارث الكندي ليست بمعزل عن تراكم الامتعاض والكره من توسع نفوذ رؤساء القبائل •

الحالة الدينية :

من غير الدخول في تفاصيل العقائد الدينية القديمة التي اعتقدت بها غالبية الشعوب البدائية وتوارثتها الاجيال خلال عشرات الالوف من السنين كالسحرية (الشعوذة) والرّقية (البدّية أو الفتيشية Fetishism) والطوطمية (الطوتمية Totomism) والروحانية (الروحية ، الارواحية Animism) [٦٩] والتي يعتبر جملة من العلماء بأنه

---

(٦٩) الرّقية وجمعها الرّقى أو البدّ وتقابلها الفتيش Fetish كما ترد في المعاجم شيء جامد كانت الشعوب تعتبر أن له قدرة سحرية على حماية صاحبه أو مساعدته ، وهي التي ستتطور الى صنم ومعبود • والفتيش عبارة عن تصوّر همجي لتحول الظواهر الطبيعية الحقيقية المكتسبة خواص خارقة الى أشياء خارقة الشعور • لاحظ ذلك ، كارل ماركس ، رأس المال ـ المقدمة ، كارل ماركس وفردريك انكلز ، المؤلفات ، (بالروسية) ، المجلد الاول ، ص ٩٨ ، لاحظ كتاب المسائل الاساسية للالحاد العلمي ، انتاج قسم التأريخ والنظرية الالحادية في جامعة موسكو باشراف البروفيسور أي•د• بانتسيخف ، موسكو ، ١٩٦٢ ، ص ٧٣ •

والرّقية معروفة لدى العرب وكذلك العوذة والتميمة ، وهي خرزة أو ما يشبهها كان الاعراب يضعونها على أولادهم للوقاية من العين أو الارواح ، وقد شك شاعر في نفعها فقال :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ولا تزال القرويات والاميات يستعملن الخرز والودع وسن الذئب لحماية أنفسهم وأطفالهم كبقايا عقائد موروثة من الماضي السحيق •

أما الطوطمية أو الطوتمية فتنسب الى الكلمة الهندية طوطم أو اوتوطم ، التي تعني الجنس أو العشيرة ويقتصر التقديس على حيوان أو

من العبث النقاش في أي منها أكثر قدما لان اشكالا مختلفة من الاديان القديمة قد تشابكت وتحوّلت وتطورت ، فاننا سنتناول أديان عرب شبه الجزيرة القديمة الاصيلة والمستوردة والدخيلة بشيء من الايجاز ، علما بأن الافكار والمعتقدات الدينية هي انعكاس لاوضاعهم الاجتماعية وشروطها المادية وآن لها التأثير في تفكير أبناء المجتمع وفي تصرفاتهم .

١ ـ الوثنية :

لقد تدرجت العقائد والعبادات القديمة من البساطة الى التعقيد ، واختلطت بما تسرب اليها من معتقدات أهل الشمال(٧٠) ، وفي البداية يمكن افتراض وجود تصورات ساذجة بسيطة عامة عن قوى ومظاهر الطبيعة خلقتها في مخيلة الانسان البدائي عوامل الخوف والامل ونمتها الاحلام والاساطير البدائية . لكن تلك الافكار العامة لم تتعقد بعد ، حيث لم يكن بالمستطاع بعد تكوين التجريدات « كالاله ، الروح ، النفس » ، أي لم يتعقد بعد التصور عن الكائنات غير المادية ، بمعزل عن الاشياء ، تلك الاشياء والظواهر المكتسبة خواص ما فوق الطبيعة ، خارقة ، وقد احتفظ بأمثال

نبات الذي يتخذ سلفاً أعلى للعشيرة ويحرم (تابو Taboo) قتله وأكله كما فعل اليهود الاقدمون الذين حرموا على أنفسهم الخنزير وظل ذلك الى أحفادهم ، والفراعنة الثور آبيس والهنود البقرة .. الخ .

أما الروحانية أو الارواحية فهي الاعتقاد بحيوية المادة ، أو الاعتقاد بأن لكل ما في الكون وحتى للكون ذاته ، روحاً أو نفسا والاعتقاد بأن الروح أو النفس هي المبدأ الحيوي المنظم للكون ولهذا يسميه البعض المعتقد الحيوي . لاحظ ذلك انكلز ، المؤلفات ، (الروسية) المجلد ، ٢٤ ، ص ٥٩٨ ، لاحظ المسائل الاساسية للالحاد العلمي ، ص ٧٥ـ٦ .

أن تصوّر البدائيين بأن للاجساد ارواحا تتحرك ولها أصوات وتسرح الارواح من الابدان لتعود اليها (عند النوم مثلا) أو تغادرها نهائيا (عند الوفاة مثلا) وحلولها في الاحجار والاشجار لتعاود الحياة قد ساعد على تصوّر الروحانية في كل شيء .

(٧٠) يرجح من عبادات العراقيين القدماء .

هذه التصورات امدا طويلا مع تصورات أكثر تعقيد[٧١] . وهكذا ظلت معتقدات العرب القدامى بسيطة ساذجة لبساطة حياتهم ، وكانت لا تتعدى عبادة وتقديس بعض مظاهر الطبيعة مقرونة بشيء بسيط من الشعوذة والسحر والخرافات فعبدوا عيونا ، آبارا ، كهوفا ثم حيوانات ونباتات[٧٢]، (أسد ، كلب ، نسر ، ونخيل) ، وحتى دور ، وحجارة . وتظهر تلك العبادة ضعف الانسان تجاه الطبيعة وشكره على نعمها وآلائها ، فكانت عبادته رهبة ورغبة على حد سواء .

ولما كانوا رعاة متنقلين فانهم (كبقية الساميين) عبدوا الاجرام السماوية ايضا كأغلبية الرعاة في العالم القديم ، غير ان دياناتهم لم تخدم مصلحة طبقة معينة لخلو المجتمع بعد من الطبقات .

وعندما تقدم المجتمع ـ سيما في الجنوب الغربي ـ بعد تبدل اسلوب انتاجه وظهور الطبقات فيه استعان المتنفذون بالعقائد الدينية لتنفيذ مآربهم وتسهيل تضليلاتهم من أجل أحكام سيادتهم وازدياد نفوذهم واستغلالهم فكان رجال الدين ـ الكهان ـ يوقعون على الشرائع لتأييدها ويطلبون من الآلهة البركة لمن يطيعها وينفذها واللعنة على من يعصيها ويخالفها ، وقد شاهدنا كيف مارس الملوك الاولون (مزواد ، مكارب) نفوذهم الديني بصفتهم كهان المعابد لبسط نفوذهم وتركيز سلطانهم فازدادت الشعوذة والسحر وتعقدت الطقوس الدينية في عبادة الآلهة المتعددة ، التي اقتبسوا

---

(٧١) لاحظ حول عبادات البدائيين ، كتاب المسائل الاساسية للالحاد العلمي ، ص ٧٢ ـ ٨٤ .

(٧٢) راجع مناقشة جرجي زيدان الآراء التي تعزو ذلك الى الطوطمية ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج٣ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٤٠ ـ ٢٧٤ ، لقد اعتمد هذه المناقشة جواد علي ، المفصّل ، ج١ ، ص ٥١٨ ـ ٥٢١ ، والدكتور صالح أحمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ط ٣ ، ص ١٣١ .

بعضها من وادي الرافدين أمثال (عشتر[٧٣] = الزهرة ، ود[٧٤] = القمر ، نكرح[٣٥] = الشمس ...) واستخدمت الاساطير القديمة وهي التي تخلق العقيدة في ما وراء الطبيعة[٧٦] ، من أجل تمرير الاوهام والتضليلات التي تحتاجها الطبقة السائدة ، لقد ساعدتهم تلك الاساطير في بسط نفوذهم ونشر أفكارهم بفضل ما تحتويه من خيال خصب مرن ولانها ـ كما يقول الدكتور صادق جلال العظم ـ كانت ولا تزال الوسط الذي واجه الانسان فيه مشكلاته الكبرى والدائمة كالموت والمصير والشر وأصل الاشياء وغايتها ومعناها[٧٧] . فكان البسطاء يتهافتون على الاساطير ليجدوا فيها الاجوبة السحرية المفعمة بالعاطفة وفي ثناياها تتسرب مفاهيم الطبقة السائدة عن الطاعة والخضوع والقناعة والاذلال الابدي ، ولم يخف ذلك حتى على المؤلف البرجوازي ول ديورانت :ـ (فالاساطير هي التي تخلق العقيدة فيما وراء الطبيعة ، ثم يكون من شأن هذه العقيدة ان تضمن بقاء أنواع من السلوك يريد المجتمع (أو يريد الكهنة) بقاءها ، فما يرجوه الفرد في السماء من ثواب وما يخشاه لديها من عقاب ، يضطره اضطرارا أن يذعن للقيود التي يفرضها عليه سادته أو جماعته ، فالانسان ليس بطبعه مطيعا رقيقا طاهرا ، ـ وليس شيء كالخوف من الآلهة ـ وذلك بعد القهر الذي خضع له الفرد قديما فأنشأ في نفسه الضمير ـ أخضع الانسان لهذه الفضائل التي لا تتفق وطبيعته اخضاعا مطردا صامتا)[٧٨] ، وهكذا كانت ديانة الجنوبيين ذات نفوذ

---

(٧٣) تقابل عشتار البابلية ، وفينوس لدى الاغريق .

(٧٤) لدى المعينيين والمقه لدى السبئيين ومقر عبادة المقه في صرواح .

(١٥) جاء في سورة النمل (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ـ ٢٤) .

(٧٦) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ١١٧/١ .

(٧٧) نقد الفكر الديني ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٨٥ .

(٧٨) قصة الحضارة ، ١١٧/١ ـ ٨ .

واسع وكان لكل مدينة اله خاص بها كما كان هناك آلهة كبيرة تعبد في كل أنحاء المملكة الا ان لها معابدها الخاصة في مدن معينة .

بينما في الحجاز ونجد ، الذي تأخر مجتمعها عن اللحاق بمجتمع الجنوب الغربي المتطور ، فقد ظلت عبادتهم ساذجة لا تتعدى بعض الطقوس البدائية تقام لاحجار غير مصقولة ولاشجار تمثل معبوداتهم الاولية .

وعندما بدأت تطرق أرض الحجاز القوافل التجارية ونمت بعض المدن بفضل الزراعة في الواحات وكمراكز تجارية ، مكة مثلا ، فكر سراتها (عمرو بن لحى)[٧٩] ، الذين شاهدوا في سفراتهم شدة تمسك الناس هناك بعبادة آلهتهم ـ بعد مرحلة الانتقال الى الآلهة البشرية[٨٠] بسبب عبادة الاشباح والاسلاف ـ ، في جلب قسم منها (الاصنام) لزيادة الاهمية واضفاء الاحترام والقدسية لبلدهم ولهم بصفتهم سدنتها (الآلهة) ، وشجعوا القبائل[٨١] الاخرى على عبادة وتقديس تلك الآلهة المستوردة من

---

(٧٩) ابن الكلبي ، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب ، كتاب الاصنام ، تحقيق أحمد زكي ، القاهرة ، ١٩٢٤ (اعيد طبعه بالاوفسيت ، ١٩٦٥) ، ص ٨ .

(٨٠) تداخلت العقائد الروحانية (الحيوية) والفتيشية والطوطمية بعضها ببعض مع احترام وتقديس الاسلاف ولعبت الاساطير دورها على تصوّر الالهة بأشكال وهيئات بشرية وحيوانية لها أبدان وأرواح ونفوس ورغائب .

(٨١) نظرا لانعدام مصادر ومدونات الوثنيين في فترة الجاهلية فانه تواجه الباحث في ديانة عرب الحجاز ونجد لما قبل الاسلام صعوبات جمة نظرا لان المصادر التي كتبت عن تلك الحقبة في العهد الاسلامي متحيزة وتحتاج الى غربلة وتدقيق ، وقد لاحظ الدكتور صالح أحمد العلي ذلك حيث ذكر : ـ (اننا لا نعرف بالدقة والتفصيل التوزيع الجغرافي للآلهة ، وأي القبائل كانت تعبد أى اله ، وأي الالهة تشترك فيها القبائل وعدد القبائل التي تشترك في عبادة هذه الالهة العامة ، وطقوسها ، والعلاقات القائمة بينها . لذلك فان دراستنا عن ديانة العرب قبل الاسلام لا تزال ناقصة وكل محاولة في هذا الشأن ، ما هي الاّ محاولة أولية ناقصة) . محاضرات ط٣ ، ص ١٧٠ .

أجل أحكام السيطرة على المستضعفين (عند تفكك المشاعية) واحترام حقوق قبيلتهم (قريش) وعدم التعرض لاموالها وتجارتها ، يقول ابن الكلبي :ـ (فلما صنع هذا عمرو بن لحى) ـ يقصد استيراد الآلهة من بلقاء الشام ، من الشمال ـ دانت العرب للاصنام وعبدوها واتخذوها)[٨٢]. وبحكم الاتصال التجاري بين الحجاز واليمن ومرور القوافل اليمانية بالحجاز وكثرة المحطات اليمانية على طول الطرق التجارية من الجنوب الى الشمال ، فانه لايستبعد استعانة الحجازيين ببعض الآلهة الجنوبية[٨٣].

وأهم ما عبد من الآلهة[٨٤] : العزى ، مناة ، اللات ، هبل ، آساف ، نائلة ، بعل ، ود ، سواع ، يغوث ، يعوق ، نسر ، ذو الشرى ، ذو الخلصة ، الشعرى ، الشمس ، سعد ، الفلس ، مناف) ، لقد تمسكت قريش وخاصة الملأ المكي وأعتزت بالديانة الوثنية لا لكونهم جبلوا منذ صغرهم وأشرأبت نفوسهم وتعودت على عبادتها فحسب ، ولكن بسبب ان هذه الديانة الوثنية تبيح لهم المحرّمات واستغلال الناس واستعبادهم (لانهم واضعوا طقوسها وناشروا تضليلاتهم باسمها) ولانها تكسبهم احترام القبائل العربية الباقية فلاتتعرض لقوافلهم ولاموالهم ولبلدهم المحرم ، وهكذا استخدموا دينهم مشفوعا بالسحر والكهانة الى أقصى الحدود من أجل مصالحهم وزيادة نفاذهم .

---

(٨٢) الاصنام ، ص ٢٣ .

(٨٣) يبدي الدكتور صالح أحمد العلي تحفظه في هذه الناحية بقوله (ومع ان الحفريات والمكتشفات الاثرية في اليمن وبلاد الهلال الخصيب قد كشفت عن وجود كثير من الآلهة ، وألقت ضوءاً على طقوسها ومراسيمها وأفكارها ، الا انه من الصعب جدا ان نوضح العلاقة بينها وبين آلهة الجاهليين ، أو التثبت مما اذا كانت الطقوس والعبادات المتعلقة بهذه الآلهة هي واحدة) ، محاضرات في تاريخ العرب ، ط ٣ ، ص ١٧٠ .

(٨٤) لاحظ عنها كتاب الاصنام لابن الكلبي ، راجع مقال الدكتور جواد علي ، أصنام العرب ، في مجلة سومر ، المجلد الثالث والعشرون ، الجزء الاول والثاني ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص ٣ ـ ٤٦ .

٢ ـ اليهـوديـة :

بالرغم من الاشارات العديدة الواردة في التوراة[٨٥] عن اتصـال العبرانيين بالعرب وشبه الجزيرة العربية قبل الميلاد عن طريق الغـزو والهجرات[٨٦] ، فان روايات التوراة ومن ثم التلمود مشوشة ومرتبكة وغير دقيقة في تحديد الازمان والاماكن التي هاجر اليها اليهود الى الجزيرة العربية .

ولهذا لا يعرف بالدقة الزمن الذي تسربت فيه الجاليات اليهودية ـ أصحاب الديانة التوحيدية ـ الى شبه الجزيرة ، هنالك افتراض بأن الغزوات المستمرة التي تعرضت لها فلسطين في القرنين الاول ـ الثاني الميلادي على يد الاباطرة الرومان تيتس[٨٧] Titus (٤٠ ـ ٨١م) ، هادريان[٨٨] Hadrian (٧٦ ـ ١٣٨م) هي السبب المباشر لهجرة اليهود في ذلك القرنين حيث كانت ترغم الكثيرين منهم على هجرة مناطقهم بالفرار للنجاة بأرواحهم ، كما وان نجاح اليمن في التجارة والزراعة كان عامل جذب قوى لليهود ، ولهذا نسمع بـ (تهوّد) اليمن ، وغلبة اليهودية فيها ، ومكافحتها ـ زمن المتعصب لليهودية ذى نواس ـ النصرانية في وادي (اخدود[٨٩]) نجران .

ومما لاشك فيه ان اليهود المهلوعين والمتلهفين على حد سواء قد سلكوا

---

(٨٥) سفر التكوين ١٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٦ : ٢٨ . سفر الايام الاولى ١ : ٤٢ ، ٤ : ٣٩/٤٠ . سفر الايام الثاني ٢٠ : ١ ، ١٠ ، ٢٢ ، ٢٥ : ١٤ ، ٢٦ : ١٤ . سفر القضاة ١٠ : ١٢ . وفي أسفـار المكابيين ونحميا وغيرها .

(٨٦) لاحظ الويس موزيل ، شمال الحجـاز ، ترجمـة الدكتور عبدالمحسن الحسيني ، الاسكندرية ، ١٩٥٢ .

(٨٧) امبراطور روما (٧٩ ـ ٨١م) .

(٨٨) امبراطور روما (١١٧ ـ ١٣٨م) .

(٨٩) سورة البروج : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ .

مفاوز الحجاز في طريقهم لليمن ، ولا بد ان بعض محطات القوافل التجارية والبقاع الخصيبة من الواحات المبعثرة على طول الطريق من شمال الحجاز الى جنوبه (تيماء ، فدك ، خيبر ، وغيرها) كانت تجذب العديد منهم ، ممن أضناهم المسير الطويل الشاق والمفكرين باستغلال أموالهم وخبرهم وسواعدهم في الارض البكر فأناخوا في تلك البقاع قبل اليمن ، لكننا بالاتفاق مع جواد علي لا نستطيع تحديد زمن استقرارهم بالحجاز بالدقة • ومع دخولهم تسربت الافكار التوحيدية والتعاليم اليهودية وما جاء فيها من خلق الدنيا ومن بعث وحساب وميزان ، ومصطلحات مثل جهنم والشيطان وابليس(٩٠) • وبالرغم من استعرابهم فانهم احتفظوا ـ كما يلاحظ نكلسن ـ بيهوديتهم لا في تنمية تجارتهم وصناعاتهم المختلفة فحسب بل في أكثر خصائصهم حيوية ـ الا وهو الدين(٩١) ، وعاشوا منعزلين كما في خيبر ، وأشهر مجموعاتهم بنو قريضة ، بنو النضير وبنو قينقاع •

٣ ـ النصرانية :

انتشرت المسيحية بفرقها المختلفة في العراق والشام وعن طريقهما وطريق الحبشة انتقلت المسيحية الى شبه الجزيرة ، الا انها كانت قد اندحرت في اليمن ـ في وادي نجران ـ نتيجة غلبة اليهودية في اليمن ،

---

(٩٠) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ط ١٠ ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٤ ـ ٥ •

(٩١) رينولد نكلسن ، تاريخ العرب الادبي في الجاهلية وصدر الاسلام ، ترجمة الدكتور صفاء خلوصي ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٢٢٨ •

(٩٢) ذكر ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري : ـ كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة • وكانت المجوسية في تميم منهم ـ زرارة بن عدس التميمي وابنه حاجب بن زرارة وكان تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الاقرع بن حابس وكان مجوسيا ، وأبو سود ـ جد وكيع بن حسان ـ كان مجوسيا ، وكانت الزندقة في (قريش) أخذوها من الحيرة ـ المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٦٢١ •

اما في الحجاز ونجد فقد اقتصرت على التخوم الشمالية المحاذية للامارات النصرانية ، المناذرة والغساسنة في العراق وسوريا • كما وان المراكز الرئيسة في الحجاز قد تمركزت فيها اليهودية منذ أزمان بعيدة ، لهذا فان مجال المسيحية في الحجاز كان محدودا ، هناك اشارات ترد على تنصر بعض الطائيين في نجد ، كحنظلة الذي بنى ديرا بالقرب من شاطيء الفرات وعدي بن حاتم الذي تنصر بعد انلمس شعوذة سان اله طي (الفلس)[٩٣]، وعلى رهينة أعراب معروفين • ربما كان لتجوال القساوسة ورجال الدين المسيحيين مع القوافل التجارية ووفودهم الى أسواق العرب والقائهم المواعظ وتبشيرهم بالديانة المسيحية من أثر في ظهور الوحدانية والحنفية التي تركت اثرا في أقوال واشعار قس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت وغيرهم التي يلمس فيها طابع التزهد وتدعو النظر في الكون والاعتبار بحوادثه[٩٤] • كما وان لوفود الشعراء ورؤوساء القبائل على امراء المناذرة والغساسنة من أثر ، فعن الحيرة وبصرى تسربت الى اللغة العربية طائفة من الالفاظ الآرامية ـ كما يشير فيليب حتي ـ مثل كنيسة ، بيعة ، دمية ، صورة ، قسيس ، وصدقة[٩٥] •

الحنيفيـــة :

تركت الديانتان اليهودية والمسيحية آثارا بسيطة وسط ذلك الخضم الواسع ، غير انه وبالرغم من طغيان العبادة الوثنية فقد ظهر اناس تأثروا بفكرة التوحيد وتدبروا مليا بأحوال مجتمعهم فتكشفت لهم جليا الخزعبلات الوثنية وزيف وبطلان أفكارها وتصوراتها وتفاهة طقوسها ، فأخذوا يدعون الى نبذ الخرافات والتخلص من شرك الافكار الوثنيـة التي تشجعها

---

(٩٣) ابن الكلبي ، الاصنام ، ص ٦٠ ـ ١ •
(٩٤) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ط ١٠ ، ص ٢٧ـ٨ •
(٩٥) تاريخ العرب (مطوّل) ، ط ٤ ، ١٥١/١ •

الارستقراطية المكية • وكانت مفاهيم الاحناف تدعو الى التوحيد ونبذ عبادة الآلهة المتعددة والى التبصر بأمور الكون والميعاد وتدعو الى التعفف والزهد(٩٦)• هل كانت مفاهيم الحنيفية تلك تعبيرا عن الاعتراض الفردي منهم على ثراء الارستقراطيين الفاحش وتعبيرا عن الاحتجاج على أساليبهم الدنيئة في جمع المال ؟ اذا كانت كذلك فأن معارضتهم السلبية الفردية تلك لم تجد ، ارضا صالحة ولا آذانا صاغية ، وكأنها صرخة بواد ، تصطدم بمعارضة الارستقراطية القرشية المتنفذة المتمسكة بعبادتها الوثنية بحزم وحرص شديدين للاسباب التي ذكرناها سابقا ، ذكر ابن الكلبي :ـ (مرض أبو احيحة (وهو سعيد بن العاص بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف) مرضه الذي مات فيه فدخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكي فقال :ـ

ـــ مايبكيك يا أبا أحيحة ؟ امن الموت تبكي ، ولابد منه ؟

قال :ـ

ـــ لا ، ولكنني أأخاف ان لا تعبد العزى •

قال أبو لهب(٩٧)

ـــ والله ما عبدت حياتك (لاجلك) ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك •

قال أبو أحيحة :ـ

---

(٩٦) بالرغم من اشارة ابن قتيبة (المعارف ، ص ٦٢١) وابن رسته (الاعلاق النفسية ـ نشر دى غويه ، ليدن ، ١٨٩٢ ، ص ١٩٢ ، و ص ٢١٧) الى أخذ قريش الزندقة من الحيرة ، (والزندقة تطلق من قبل العلماء المسلمين على اتباع المانوية على الاكثر) ، فانه يصعب تحديد مدى تأثر الاحناف بالمانويين الثنويين من ناحية التقشف والزهد واستنكار الاثراء الفاحش بطرق دنيئة ، لاحظ مقالنا (نظرات جديدة في الديانة الايرانية) مجلة الثقافة الجديدة ، العدد ، ١٧ ـ ١٨ ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٧٥ ـ ١٠٧ •

(٩٧) يقصد الاله •

ـــ الآن علمت ان لي خليفة • وأعجبه شدة نصبه في عبادتها)[٩٨] •

لهذا كان من العسير على هؤلاء الذين تنكبوا طريق عبادة الاصنام و (صبئوا) ، والذين سموا بالاحناف ، ان يجدوا انصارا ومؤيدين لافكارهم سيما وانهم انتهجوا السلبية في نشر دعواهم فهاجر أغلبهم وخاصة الى الحبشة وهناك استمروا في حنفيتهم أو تنصروا واستقر أغلبهم هناك[٩٩] •

الكهانة :

يتصل بمعتقدات عرب شبه الجزيرة قبل الاسلام الكهانة والعرافة ، والكهانة هي على النقيض من الحنيفية ، اذ هي السحر والشعوذة ومن مصادر الاساطير الخرافية المهمة ، وتذكر الروايات العربية ان الكهان هم الذين تبوأوا بمكانة رفيعة لدى الآلهة أو وقعوا تحت تأثيرها وسخر لكل كاهن شيطان بحيث تكونت لهم القدرة على التنبؤ بالمستقبل واصدار الاحكام العادلة بين المتخاصمين ولهم القدرة على تفسير الاحلام • ولكنهم في الحقيقة ليسوا سوى جماعة من المشعوذين يستخدمون ، للتضليل والتمويه ، جملا موزونة مسجوعة قصيرة ذات جرس خاص تترك أثرا ولا بد في اذن السامع البسيط وتدخله في تأملات غيبية ومتاهات عشوائية ، وكان الحكام بحاجة الى الشعوذة والسحر والاساطير لتوطيد مراكزهم فاستعانوا بالكهان ، بل كان الملوك في الجنوب الغربي ـ كما لاحظنا ـ لفترات طويلة هم كهان بنفس الوقت أو كان الكهان يمارسون الحكم ايضا ، وكانت للكهان علاقة بسدنة الآلهة (أي خدام الآلهة والمعابد التي توجد تماثيل الآلهة فيها) بل كثيرا ما اجتمعت الكهانة والسدانة في شخص واحد •

---

(٩٨) الاصنام ، ص ٢٣ •

(٩٩) لاحظ عن الاحناف ، نكلسن ، تاريخ العرب الادبي ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ •

لقد تمتع الكهان بنفوذ واسع في المجتمع الوثني ولم تقتصر الكهانة على الرجال ، فهناك العديد من النساء المشهورات بالكهانة ، ككاهنة حدس ، والغيطلة كاهنة بني سهم ، وفاطمة بنت مرّ كاهنة خثعم وغيرهن •

الاوضـاع الفكـريـة :

ورث الساسانيون ، الذين اتخذوا العراق ، مهد الحضارات القديمة ، بعد احتلاله ، مقرا لهم ، ورثوا تراثا حضاريا وكذلك ورث البيزنطيون ، المحتلون لسوريا وفلسطين ومصر • وكانت بلدانهما متقدمة في سلّم التطور الحضاري لزمانهما ، حيث كانت الحضارة لدى مجتمعات هذه الاقطار المستقرة المزاولة للزراعة وللحرف المتعلقة بها وللتجارة ، واضحة في ازدهار المدن العامرة بالقصور والابنية والمعابد الضخمة وبالمراكز التجارية المنتشرة في ربوعها وتنسيق شبكات الارواء الواسعة ، حيث كانت تلك المجتمعات يعمها نظام الاقطاع النامي ، فكانت هناك عقود للري وتنظيم بأمور الزراعة والمغارسة واستغلال الارض، وهناك تنظيمات كبيرة للضرائب المجحفة المتعددة ، وهناك مؤسسات ثقافية وبؤر ومراكز علمية (الاسكندرية انطاكية ، حرّان ، الرّها ، بصرى ، الحيرة وجند يسابور)، فكان هناك فلاسفة وأطباء وعلماء ومشرعين ومؤرخين وفلكيين ، وكان لكلا الامبراطوريتين أنظمة للحكم وقوانين تتحكم بهما في فرض سيادتيهما على أبناء الشعوب المستغلة •

لكن أبناء الجزيرة العربية قبيل الاسلام لم يعهدوا ما لدى الساسانيين والبيزنطيين من علوم ومعارف • ففي الجنوب الغربي ، الذي قامت فيه حضارة عهود الرق ، نكب بالاحتلال الاجنبي ، الذى دمّر البلاد وخرب المرافق الاقتصادية وحوّل طرق التجارة منها ـ كما شاهدنا ذلك سابقا ـ

---

(١٠٠) عن الكهانة والعرافة لاحظ محمود شكري الالوسي ، بلوغ الارب ، القاهرة ، ٣/٢٦٩ ـ ٣٠٧ •

لهذا طال العهد الذى فارق به أهل الجنوب الفنون والمعارف القديمة التي مارسوها في فن هندسة بناء السدود والقصور والعلوم المتيسرة لزمانهم .

أما باقي أنحاء الجزيرة فانها كانت متأخرة بحكم تأخر تطور اقتصادها الذى لم يكن ذو انتاج سلعي ، وبحكم العزلة التي فرضتها الصحراء . ولكن رغم العزلة الواسعة لابناء شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام عن أقطار الشرق الادنى المتطورة المجاورة ، فانه كانت تتم ، على نطاق ضيق ، اتصالات القبائل المتنقلة وراء الماء والكلأ والتجار الذين يسافرون بتجارتهم والوفود من رؤساء ومتنفذي القبائل والشعراء الوافدين على بلاطات المناذرة والغساسنة ، وأحيانا على طيسفون (المدائن) بأبناء تلك الشعوب المتطورة .

وكان لهذه الاتصالات الضيقة آثارا محدودة في حضارة عرب ما قبل الاسلام حيث اقتبست بعض المعارف بصورة مبسطة كما ودخلت مصطلحات ومفردات حضارية من أنظمة مالية وأدبية وثقافية ودينية (خراج ، جزية ، قفيز ، صراط ، أساطير ... الخ)[١٠١] ، كما ويلاحظ أثر ذلك في أساليب ومفردات الشعراء الوافدين على امراء المناذرة والغساسنة بصورة خاصة[١٠٢] .

---

(١٠١) أورد الماوردى ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، شعراً لزهير بن أبي سلمى :ـ

(فتغل لكم ما لا تغل لاهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم)

الاحكام السلطانية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤٨ . ويستنتج الماوردى بأن ضريبة الخراج كانت في العراق في العهد الساساني . القفيز: وحدة كيل ، والصراط Stratus الاغريقية وتعني الطريق الممهد المعبّد ، وأساطير : جمع اسطورة (istoriya الاغريقية ، Historia اللاتينية و History الانكليزية) وتعني قصة وحدث وتاريخ وخرافة .

(١٠٢) لاحظ الفصل الثاني من كتاب فجر الاسلام لاحمد أمين ، ط ١٠ ، ص ١٢ ـ ٣٠ ، لاحظ أيضا قائمة الكلمات الفارسية الدخيلة

ولم يكن تأثر أبناء شبه الجزيرة بالحضارات المجاورة ، رغم قلته ، ليتم عن طريق انتقال بعضهم الى البلاد المجاورة واتصالهم بأبنائها فحسب ، بل كان يحصل أيضا عن طريق ورود جماعات من أبناء تلك المناطق الى شبه الجزيرة على هيئة تجار ومهاجرين وأسرى ومبشرين (من يهود ونصارى وزرادشتيين ومن أقوام مختلفة) ، الذين نقلوا معهم مهنهم وخبراتهم ومعارفهم ، من المراكز الحضارية الساسانية والبيزنطية ومن اليمن قبل احتلالها أيضا ، الى الحجاز بصورة خاصة .

أما أهم معارف[١٠٣] عرب ماقبل الاسلام والتي هي في الاغلب من متطلبات مجتمعاتهم فهي :

١ ـ الانساب ، ٢ ـ التأريخ ، ٣ ـ تفسير الاحلام ، و ٤ ـ علم التنجيم والفلك .

أما علم الانساب فكان من مستلزمات النظام القبلي الذي تسود فيه الروابط القبلية ـ كما ذكرنا ـ لان الانتساب الى القبائل ضروري وسط الصحراء التي لا يسلم الفرد فيها من التعرض للخطر في كل لحظة ، ولهذا عنى العرب بحفظ أنسابهم وان لم يدوّنوها ، وتدلنا أيام العرب والقصص والاشعار على مدى عنايتهم بهذا الفرع من المعرفة وتقدمهم فيه . أما علم التاريخ ، فان طابع الحياة القبلية التنقلية لعرب ما قبل الاسلام ـ كما لاحظنا ـ كان يلزم الافراد العناية بمفاخر القبيلة وترديد الملاحم والاساطير والاشادة بمفاخر الأسلاف ، لقد مارست الشعوب التي عاشت

التي أوردها أحمد أمين في ص ١١٧ من الكتاب الآنف الذكر وان كان بعضها دخل اللغة العربية بعد الفتوحات ، لاحظ أيضا فليب حتي تاريخ العرب مطول ط٤ ج١ ص ١٤٩ ، (الهامش ٢ و ٤) ص ١٥٠ و ١٥١ حول المفردات الغربية التي دخلت اللغة العربية .

(١٠٣) يطلق عليها العلم تجاوزا وهي أقرب الى المعارف .

بحالة بدائية العناية بالاساطير التي تشيد بمفاخر الاسلاف والمبالغة فيها وتأليف القصص الخيالية وتقديس الاجداد وجعل بعضهم بمصاف الآلهة ، لقد دفع التفاخر والاشادة بأيام الحروب التي تخوضها القبائل العربية وما يتخللها من فروسية وشجاعة واقدام الى تطوير تلك (الايام) الى شكل أخبار قصصية ، ومن هنا وبالاضافة الى العناية بأخبار التنقلات والرحلات التجارية الى الجنوب والشمال ظهرت دوافع الاهتمام بـ (علم) التاريخ ، والذي ظل حتى حقبة طويلة من العهد الاسلامي ينقل شفاها • لقد حفظ لنا عرب ما قبل الاسلام حوادث الايام والاساطير وأخبار الشماليين والجنوبيين بصورة مبسطة وبأسلوب أدبي • ولا شك أنه كانت تتسرب الى معارف عرب ما قبل الاسلام التاريخية ـ أحيانا ـ في زمانهم بعض أخبار اليهود من توراتهم وتلمودهم بحكم مجاورتهم لهم ببعض مدن الحجاز وفي اليمن ، وأخبار النصارى الذين يحتكون بهم ـ على نطاق أضيق ـ الغساسنة والمناذرة ، وكذا الحال بالنسبة للاخبار الايرانية ، التي كانت تتسرب اليهم هي الاخرى عن طريق الحيرة وعن طريق اليمن بعد الاحتلال الايراني لها •

وأما تفسير الاحلام فقد اختص به الكهان الذين امتازوا بقابليات خاصة وقدرة على التعرف على نفسية المراجعين مما يسر لهم مهماتهم ومهد السبيل لهم للاطلاع على دخائل نفوس مراجعيهم ولهذا كانت تفسيراتهم وعرافتهم تلاقي رضا وقبولا من سائليهم • وتعج كتب المؤرخين المسلمين ، الذين وصلت اليهم أخبار الكهان رواية ، بقصص حوادث غريبة عن تفاسير الكهان للاحلام الغريبة وقد برعوا باختلاق قواعد لتفسير ما يراه النائم من أحلام •

وأما التنجيم وعلم الفلك والنجوم فقد وصل العرب عن الساميين

(الكلدانيين) بصورة بسيطة ، فعرفوا النجوم والكواكب والابراج[١٠٤] وجاءت تسمياتهم مشابهة ان لم تكن مطابقة للتسميات القديمة وقد تأتي لهم ذلك بتطلعهم للكواكب والنجوم واهتمامهم بها واحتياجهم لها في معرفة الانواء والمواسم وفي أسفارهم ولعبادتهم لها وقد انتقلت المعارف الفلكية اليهم من الجنوبيين أيام ازدهار الحضارة لديهم • وقد ظهر في شبه الجزيرة العربية جماعة اشتهروا باتقان النجوم وأفلاكها منهم مارية بن كلب وبنو مرة بن همام الشيباني ، وقد مارس بعض الكهان التنجيم لدراسة طالع الاشخاص مقرونا بالبروج الفلكية كجزء متمم لاعمالهم في الشعوذة والدجل •

---

(١٠٤) من المفيد مراجعة الفصل الاول من الجزء الاول من كتاب المستعرب السوفيتي اغناطيوس يوليا نوفيج كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ عن أهمية الفلك في حياة العرب الجاهليين • وقد بين (ان عرب الجاهلية لم يعرفوا على ما يبدو أسماء البروج بل أن لفظ (برج) (وجمعه ابراج وبروج) الذى استعمل بالتالي في ذلك المعنى كان يعني لديهم مجرد (النجوم) ، ص ٤٢ •